صورة الغرب في شعر حافظ إبراهيم

The Image of the West in the Poetry of Hafez Ibrahim

أنس عطية الفقي *
anasatia@hotmail.com

الملخَّص:

يحاول هذا البحث تقديم تحليل نقدي لصورة الغرب في شعر حافظ إبراهيم؛ لعلّه يُسهم في الكشف عن جذور بعض المشكلات المتصلة بعلاقتنا بالغرب، فالغرب– لا شك– قوة قائمة في عصرنا الحديث، والتَّصوُّر الحقيقي يؤدي إلى تصرُّف حكيم، والتاريخ مدرسة نتعلم منها جميعًا، والأدب مرآة للمجتمع في كلِّ عصر، واختيار حافظ إبراهيم خاصة كان بسبب شهرته بالوطنية وعدم انتمائه أصلًا لدولة أجنبيَّة، فهو لم يكن عضوًا في بعثة علميَّة لإنجلترا أو فرنسا أو أتمَّ تعليمه هناك، كل ما هنالك أنه ارتحل رحلة واحدة إلى إيطاليا، فهو –على حد تعبير الدكتور طه حسين– "غير مدين لأوروبا بشيء من أدبه"[1].

وحافظ إبراهيم عاش في مرحلة زمنية مفصلية، فُرضت فيها الهيمنة الاستعمارية بشقيها العسكريّ والثقافيّ، وتحكمت في تشكيل عالمنا المعاصر، وقد حاول الشاعر أن يعبر في هذه المرحلة بإشكالياتها العسيرة بين تعنُّت المستعمر الذي يدعي التحضر ومراعاة حقوق الإنسان، وبين ضعف قادة الشرق

* أستاذ الأدب العربي كلية اللُّغات والترجمة – جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.

* مدير مركز تحقيق التراث العربي – جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.

وانقيادهم –غالبًا– لمراد هذا الغاصب المحتل، وما نتج عن هذا من استعمار ثقافيّ أراد أن يهمِّش التَّعليم ويؤخِّر الشَّرقَ ليظل تابعًا أمينًا له.

الكلمات المفتاحية: صورة الغرب؛ حافظ إبراهيم؛ الشعر والاستعمار؛ الشعر الوطني في العصر الحديث؛ الموازنة بين الشرق والغرب.

Abstract:

This research provides a critical analysis of the image of the West in the poetry of Hafez Ibrahim, in an attempt to contribute to revealing the roots of some problems related to our relationship with the West. The West - no doubt - is an existing force in our modern era; and as the realistic perception leads to wise behavior, we must learn from history and consider literature a mirror of society in every era. The choice of Hafez Ibrahim in particular has been because of his reputation as a patriotic writer who does not belong originally to a foreign country. Moreover, he was neither a member of a scientific mission to England or France nor completed his education there; all there is that he traveled one trip to Italy. He, then, according to Dr. Taha Hussein, "does not owe Europe anything of his literature.[1]"

Hafez Ibrahim lived in a pivotal time stage, in which colonial domination was imposed in both its military and cultural facets, and controlled the formation of our contemporary world. Ibrahim tried to express at this stage the difficult problems faced by a community fluctuating between the intransigence of the colonizer claiming civilization and observance of human rights from one side, the weakness of the leaders of the East and their docility – often – to the will of this usurper occupier, and the resulting cultural colonialism that wanted to marginalize education and delay the East to remain a faithful follower.

Keywords: The image of the West, Hafez Ibrahim, poetry and colonialism, national poetry in modern era, balancing between East and West.

المقدمة

قدَّر اللهُ للأمة العربيَّة في العصر الحديث كوكبةً من الشُّعراء الكبار تمثلوا روح هذا العصر الذي ظهر فيه المستعمر الغربي بصورته الجديدة، فبعد أن عانت السواحل الإسلاميَّة بطول البحر المتوسط من حملات الحروب الصَّليبيَّة في العصور الوسطى، عادت أوروبا بشكل آخر مع الحملة الفرنسية، عادت مع تقدمها العلمي والمادي تزعُم أنها تحمل مشاعل الحضارة وحقوق الإنسان إلى الدول المتخلِّفة لتكون سببًا في عُمرانها؛ فظهرت كلمة "الاستعمار" التي هي في معناها اللغوي تعني "طلب العمران"، وفي معناها الاصطلاحي تعني– بلا ريب– "الاحتلال والاستغلال والسيطرة". وهذا المعنى الأخير هو الذي استقر في ذاكرة الشعوب التي وقعت فريسة تحت نير ما يسمى بـ "الاستعمار". وبدأت تتردد أسماء الدول الأوروبية في المشرق بشكلها الحالي فنسمع عن: إنجلترا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا وألمانيا، بعد أن كان يطلق على هؤلاء قديمًا الروم أو الفرنجة أو الصليبيون.

انبهر النَّاس في الشَّرق بمنتجات الحضارة الغربية على مستويات عدة، فانبهروا بالقوة التي أنتجها العلم الحديث من الأسلحة الحديثة، والنُّظم العسكريَّة المتقدمة، وانبهروا بالعلم الحديث ومجالاته المختلفة، وانبهروا أيضا ببعض الجوانب الإنسانية، ولكن سرعان ما تغيرت هذه النَّظرة إلى النقيض تماما؛ لأسباب واقعية، فالإنسان هو الإنسان لم يتغير طبعه.

ولا شك أن النتاج الأدبي يحمل كثيرًا من الحقائق التاريخيَّة المتوارية في دلالاته. فالأدب تاريخ الإنسان، وأدب العصر مرآتُه التي يبدو من خلالها ما لا يبدو في التاريخ المكتوب أو المدون الرسمي؛ لأن الأدب مهما بلغ من تكلُّف وتصنُّع ومحاولة محاباة إنما هو تعبير لا يُغفل العاطفة، فالعاطفة تبدو بشكل أو

بآخر لتكون لها دلالتها الخاصة التي يلتقطها الناقد الحصيف بالإضافة إلى الفكرة المعتادة. وتلك قضية مهمة يجب مراعاتها عن التحقق من وقائع التاريخ.

وصورة الغرب عند شعراء العصر الحديث، مثَّلتْ خلفية أساسيَّة في نتاجهم الشعري المؤثر في الأجيال اللاحقة حتى عصرنا هذا، وقد يكون ذلك سببا فيما نحن فيه من تناقض في نظرتنا للغرب. فقد نجد منا من يكيل الاتهامات للغرب وفي الوقت نفسه يودّ لو سافر إليه وعاش فيه، ونجد من يزعم أن الغرب هو الحضارة الإنسانية بكل معانيها حتى في المعاملة، ثم ما نلبث أن نرى الشخص نفسه يزعم أن دول الغرب تتآمر من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين.

ومعرفة المدخل أساس لمعرفة المخرج، ولا شك أن الشَّرق في أزمة بل في أزمات من الطائفيَّة والشرذمة والاستغلال من قبل الأقوياء، وفي كلِّ هذه الأزمات لا نستطيع أن نزيح من المشهد صورة الغرب بما تحمل من تناقض، فالغرب بصفة دائمة جزء لا يتجزأ من قضايا ومشكلات الشرق، من هنا جاء هذا البحث في بواكير هذه الصورة في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، هذه الحقبة الخطيرة من تاريخ العالم التي شهدت الحرب العالمية الأولى ومقدمات الحرب العالمية الثانية؛ فظهر الغربي بصورته الوحشية بعد تلك المثالية المزعومة، لتؤكد الجانب السلبي من الصورة الاستعمارية البغيضة.

وبذلك يحاول البحث تقديم تحليل لصورة الغرب في شعر حافظ إبراهيم علّه يُسهم في الكشف عن جذور بعض المشكلات المتصلة بعلاقتنا بالغرب، فالغرب قوة قائمة في عصرنا الحديث لا شك في ذلك، والتَّصوُّر الحقيقي يؤدي إلى تصرُّف حكيم، والتاريخ مدرسة نتعلم منها جميعًا، فالأدب –كما أشرنا– مرآة للمجتمع في كلِّ عصر، واختيار حافظ إبراهيم خاصة كان بسبب شهرته بالوطنية وعدم انتمائه أصلًا لدولة أجنبيَّة، فهو لم يكن عضوًا في بعثة علميَّة لإنجلترا أو فرنسا أو أتمَّ تعليمه هناك، كل ما هنالك أنه ارتحل رحلة واحدة إلى

إيطاليا، فهو – على حد تعبير الدكتور طه حسين – "غير مدين لأوروبا بشيء من أدبه"[2].

ومن خلال قراءتنا واستعراضنا لشعر حافظ إبراهيم وتعقبنا صورة الغرب في شعره، تم تقسيم هذا البحث إلى ما يلي:

المبحث الأول: الغرب النَّموذج الحضاري (النَّظرة المثاليَّة)

المبحث الثَّاني: الصورة الاستعماريَّة (الوجه الآخر)

المبحث الثَّالث: المقارنة بين الشَّرق والغرب (دوافعها ودلالاتها)

المبحث الأول:

الغرب.. النَّموذج الحضاري

لم يكن غريبًا في الحقبة الزَّمنية التي عاشها حافظ أن يمثِّل الغربُ النَّموذج الحضاريَّ على أرض الواقع، فهو الغرب المنتصر، الذي يتحكَّم في الأرض كيف يشاء، بل ويضع المعايير والدساتير المنظِّمة للحياة على الأرض، متحصنًا بالعلوم والمعارف الجديدة التي مثَّلت طفرة ملحوظة في تاريخ البشريَّة، فالاكتشافات العلميَّة للبشر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تعدل ما حصَّله الإنسانُ من معارف على مدى تاريخه الطويل كما هو واضح للعيان.

ومهما يكن من أمر فَاليَدُ الطولى للأقوى، والصَّوت الأعلى للأقوى، فقد عُرف قديمًا أن القوة ليست في السِّلاح وحده، بل يجب التسلُّحُ بالعلم، فمن عرف أكثر عزّ وتحضر، والمعرفة أبوابها كثيرة متنوعة، والدول الغربيَّة تنافست منذ العصور الوسطى في ميدان العلوم والمعارف والكشوف الجغرافيَّة وتطوير وسائل الدفاع والهجوم، فأغدقوا أموالهم على دراسة الشعوب حتى يتمكنوا من السيطرة عليهم، وفي الحملة الفرنسية شاهد على بداية هذا التوجّه. فكتاب وصف مصر يعتبر دليلًا على ذلك.

صحيح أن حافظ إبراهيم وُلد قبل الاحتلال البريطاني بحوالي عشر سنوات، ولكن الهيمنة الاستعمارية كانت واضحة على الشَّرق الأوسط، بل على الدولة العثمانية منذ عصر محمد علي.

ومن المعروف أن محمد علي ومن خلفه من الحكام حرصوا جميعًا على الاقتداء بالنموذج الغربي المنتصر الذي يداهنه السلطان العثماني في كثير من الأحوال.

فالبيئة التي نشأ فيها حافظ –شاعر النيل– والوسط الثقافي الذي احتضنه من مفكري مصر وزعمائها كالشيخ محمد عبده صاحب العبارة المشهورة: "في الغرب إسلام ولا مسلمون، وهنا مسلمون ولا إسلام"، هذه البيئة كلها كانت تؤكد على أن النموذج الغربي هو النموذج الحضاري المنشود.

وقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية، بالنسبة لحافظ، النموذج الأعلى، حيث لم تكن تلوثت بالانخراط المباشر في الحروب العالمية والاستعمار لدول المشرق، وكان يسميها "الدنيا الجديدة"، وقد يكون غاب عنه الوجه الآخر لهذه الدنيا الجديدة وما فعله أهلها من قهر واستعباد وانتزاع حقوق الشعوب الأصيلة. يقول في قصيدة بعنوان: "إلى رجال الدنيا الجديدة" أنشدها في الحفل الذي أقامته كلية البنات الأمريكية بمصر في 26 مايو سنة 1906م:

أَيْ رِجالَ الدُنيا الجَديدَةِ مُدّوا لِرِجالِ الدُنيا القَديمَةِ باعا
وَأَفيضوا عَلَيهِمُ مِن أَيادي كُم عُلومًا وَحِكمَةً وَاِختِراعا
كُلَّ يَومٍ لَكُم رَوائِعُ آثا رٍ تُوالونَ بَينَهُنَّ تِباعا
كَم خَلَبتُم عُقولَنا بِعَجيبٍ وَأَمَرتُم زَمانَكُم فَأَطاعا
وَبَذَرتُم في أَرضِنا وَزَرَعتُم فَرَأَينا ما يُعجِبُ الزُرّاعا

فواضح أن نظرته إليهم هي تلك النَّظرة المثالية التي انبهرت بمنتجات الحضارة الحديثة، فمنهم أهل العلم والحكمة والاختراع، ومآثرهم لا تتوقف، فهم يوالون الاختراع بعد الاختراع حتى خلبوا العقول بعجائبهم. وأمروا الزمان فأطاع هذا التعبير الأخير "وأمرتم زمانكم فأطاعا" يعبر عن مدى انبهاره بهم، وبالتالي انقياده النفسي والعقلي والشعوري لمنهجهم في الحياة. وليؤكد ذلك، يأتي بصورة من واقعه هو، من بلاده، من الكلية الأمريكية للبنات بمصر، كيف أنها أخرجت طالبات متسلحات بالعلوم الحديثة، ويصور ذلك بالأرض التي بذروا فيها بذورهم فأنبتت ما يعجب الزراع، وفي هذه الجملة الأخيرة اقتباس من القرآن الكريم[3].

ولا يكتفي حافظ بوصف ما يرى، بل يتمنى تجاوز مرحلة الإعجاب إلى الاقتداء، فيقول:

لَيتَنا نَقتَدي بِكُم أَو نُجاريـ كُم عَسى نَسترِدُّ ما كانَ ضاعا[4]

والمقارنة بين الشرق والغرب نراها دائمًا حاضرة على مستويات عديدة سنذكرها لاحقا في المبحث الثالث إن شاء الله.

ويواصل أمنياته لمصر بأن تنازع جميع الأمم المجد على الأرض:

لَيتَ شِعري مَتى تُنازِعُ مِصرٌ غَيرَها المَجدَ في الحَياةِ نِزاعا

وَنَراها تُفاخِرُ الناسَ بِالأَحـ ياءِ فَخرًا في الخافِقينَ مُذاعا[5]

ثم يشير بعد ذلك إلى جناحي القوة لدى أمريكا من مهارات بشرية علمية وأرض غنية بالكنوز فيقول:

أَرضَ كولُمبَ أَيُّ نَبتَيكِ أَغلى قيمَةً في المَلا وَأَبقى مَتاعا؟

أَرِجالٌ بِهِم مَلَكتِ المَعالي أَم نُضارٌ بِهِ مَلَكْتِ البِقاعا؟[6]

فهو يخاطبها باسم مكتشفها كريستوف كولمبس (أرض كولمب) ثم يشير في الشطر الأخير إلى القوة الاقتصاديَّة الهائلة التي سيطرت بها أمريكا على العالم، وقد يكون تعبيره بالنضار فيه إشارة إلى الثروة الزراعية أو الدولار صاحب اللون الأخضر.

وظل تعبير (الدنيا الجديدة) مصاحبًا لحافظ في مسيرة حياته الشعريَّة كلما ذكر أمريكا، فقد كرر هذا التعبير في الحفل الذي أقامته الجامعة الأمريكيَّة ببيروت سنة 1929م وكان قد جاوز الستين من عمره حينما يقول:

أَرى رِجالًا مِنَ الدُنيا الجَديدَةِ في الـدْ دُنــيا القَديمَـةِ تَبنــي خَيـرَ بُنيـانِ

قَــد شَيَّــدوا آيَــةً بِالشــامِ خــالِدَةً شَتّى المَناهِلِ تَروي كُلَّ ظَمآنِ[7]

ولا تغيب المقارنة التنافسيَّة عن المشهد، فإن كانوا اليوم هم اليد العليا فقد كنا في الماضي اليد العليا:

لَئِن هَدَوكُم لَقَد كانَت أَوائِلُكُم تَهدي أَوائِلَهُم أَزمانَ أَزمانِ[8]

ثم يعبِّر بصورة فنية عن إعجابه الشديد بالاختراعات الجديدة من الطائرات التي سلبت عقول الشرق:

فَتِلكَ دُنياهُمُ في الجَوِّ قَد نَزَعَت أَعِنَّةَ الريحِ مِن دُنيا سُلَيمانِ[9]

ونرى في البيت إشارة إلى قصة سيدنا سليمان وتسخير الرِّياح له، وكيف عاش الناس في المشرق أزمانًا ولا يزالون مأخوذين بهذه القصة التي تشبه القصص الخيالية بما فيها من جن ورياح وشياطين، وفي ذلك أيضا إشارة خفية إلى مقارنة بين الفكر الغربي الواقعي والفكر الشرقي الروحي الذي لم يخرج من إطاره القديم إلى الانطلاق الحضاري ومغالبة القوى الطبيعية، وكان هذا التوجُّه هدفًا يتوخاه الشاعر وأضرابه من دعاة النهضة منذ مطلع العصر الحديث.

ويبدي الشَّاعر إعجابه في هذه القصيدة بأولئك المفكرين والأدباء الشوام الذين سئموا الحياة التقليدية القديمة فانطلقوا إلى المهجر الأمريكي فشادوا وسادوا وبرعوا في الدنيا الجديدة ليثبتوا أنهم ليسوا أقل شأنًا من أبناء الغرب. يقول في شأنهم:

تَيَمَّموا أَرضَ كولُمبٍ فَما شَعَرَت مِنهُم بِوَطءِ غَريبِ الدارِ حَيرانِ
سادوا وَشادوا وَأَبلَوا في مَناكِبِها بَلاءَ مُضطَلِعٍ بِالأَمرِ مِعوانِ
إِن ضاقَ مَيدانُ سَبقٍ مِن عَزائِمِهِم صاحَت بِهِم فَأَرَوها أَلفَ مَيدانِ[10]

ثم يكرر حافظ إشادته برجال الدنيا الجديدة في قصيدته التي ألقاها في زيارته الثانية لكلية البنات الأمريكية بالقاهرة بعد أكثر من عشرين سنة على زيارته الأولى التي سبقت الإشارة إليها سنة 1906م، فهذه المرة يعود إلى الكلية ذاتها سنة 1928م ليفصِّل إعجابه بالتطورات الحضاريَّة التي امتازت بها أمريكا، يقول:

أَي رِجالَ الدُنيا الجَديدَةِ مَهلًا قَد شَأَوتُم بِالمُعجِزاتِ الرِجالا
وَفَهِمتُم مَعنى الحَياةِ فَأَرصَد تُم عَلَيها لِكُلِّ نَقصٍ كَمالا
وَحَرَصتُم عَلى العُقولِ فَحَرَّمْ تُم عَصيرًا يَراهُ قَومٌ حَلالا
وَقَدَرتُم دَقيقَةَ العُمرِ حِرصًا وَسِواكُم لا يَقدُرُ الأَجيالا[11]

ففي مفتتح القصيدة يعبر الشاعر عن إعجابه بالأمريكان الذين صنعوا المعجزات لأنهم فهموا معنى الحياة فأكملوا الناقص منها، وسدوا مواطن الحاجة ناشدين الكمال.

ثم يبيّن حرصهم على عقولهم ومراعاتهم لعدم الانهماك في شرب الخمور، يشير بذلك إلى قانونٍ لتحريم الخمور كان قد صدر في تلك الآونة كما يقول شارحوا الديوان[12].

كما يؤكد على حرصهم الدائم والدائب على الوقت وتقديرهم لكل دقيقة منه، وكعادته يتحسّر – من خلال المقارنة – على أمته التي لا تهدر الوقت فحسب، بل تهدر العصور والأجيال.

ثم يستعرض المنجَزات التي حققها أهلُ الغرب من الأمريكان وأضرابهم، فيذكر التقدم الطبي، والسيارات الحديثة، والطائرات، وموجات الأثير اللاسلكية، ومحاولات التعامل مع الفضاء، والتنقيب عن كنوز الأرض وبخاصة النفط، حتى العمائر "ناطحات السحاب" يقول:

قَـــد تَحَـــدَّيتُمُ المَنِيَّـــةَ حَتّـــى هَـمَّ أَن يَغلِـبَ البَقـاءُ الـزَوالا
وَطَـــوَيتُم فَراسِـــخَ الأَرضِ طَيًّـــا وَمَشَـيتُم عَلـى الهَـواءِ اِختِيـالا
ثُـــمَّ سَـــخَّرتُمُ الرِيـــاحَ فَسُســـتُم حَيـثُ شِـئتُم جَنوبَهـا وَالشَـمالا
تُسـرِجونَ الهَـواءَ إِن رُمـتُمُ السَيـ ـرَ وَفي الأَرضِ مَن يَشُدُّ الرِحالا
وَتَخِـــذتُم مَـــوجَ الأَثيـــرِ بَريـــدًا حـينَ خِلـتُم أَنَّ البُـروقَ كُسـالى
ثُـــمَّ حـــاوَلتُمُ الكَـــلامَ مَـــعَ النَجـ ـــمِ فَحَمَّلـــتُمُ الشُـــعاعَ مَقـــالا
وَمَحـا "فـورِدُ" آيَـةَ المَشـيِ حَتّـى شَـرَعَ النـاسُ يَنبِـذونَ النِعـالا
وَاِنتَـزَعتُم مِـن كُـلِّ شِـبرٍ بِظَهـرِ الـ أَرضِ أَو بَطنِهـا المُحَجَّـبِ مـالا
وَأَقَمـتُم فـي كُـلِّ أَرضٍ صُـروحًا تَنطَحُ السُحبَ شامِخاتٍ طِوالا[13]

وواضح من البيت الأول هذا الانبهار العظيم والاعتقاد الرَّاسخ في القدرات الطبيعيَّة لدى الأمريكان؛ حيث يصفهم بأنهم قد تحدَّوا الموت إلى درجة أنهم أصبحوا على مقربة من تغيير نواميس الكون:

قـد تحـديتمُ المنيـة حتـى هـمّ أن يغلـب البقـاء الـزوالا

وفي هذا مبالغة تظهر مدى دهشة الشاعر وغيره من منجزات الطب الحديث والاعتقاد في جدواه.

وفي الثلاثة الأبيات التالية للبيت السَّابق يتندَّر الشاعر بالاختراع الأثير لديه "الطائرات"، ويعبر بإعجاب مفرط عن القدرات الخارقة للإنسان الغربي الذي طوى الأرض طيًّا ومشى على الهواء مختالًا، بل سخّر الرياح وساسها حينما أراد، وكأن الإنسان بعلمه وعبقريته قد اكتسب من خالقه الإبداع والاختراع فاستحق الخلافة في الأرض.

ويعود حافظ لسجيته في المقارنة المعتادة بين حال من يمتطي الهواء وحال من لا يزال يشد الرِّحالَ:

تسرجون الهواء إن رمتم السيـ ـر وفي الأرض من يشد الرحالا

وبالطبع فهو يشير في الشطر الثاني إلى أهل المشرق، ويستعين بالتصوير في البيتين التاليين ليظهر مدى الإسراع في تطوير وسائل الاتصالات عبر الأثير ومحاولة التعامل مع الفضاء، فصورة "البروق الكسالى" تشي بطموح الإنسان الغربي إلى ما لا نهاية؛ حيث لا يوجد أسرع من البرق، إنه الإنسان الغربي الذي يبحث عن الأفضل دائما كما يرى حافظ.

وجدير بالذِّكر أن الأستاذ مصطفى صادق الرَّافعي في إحدى مقالاته عن حافظ إبراهيم قد أشار إلى جودة هذه الصورة (البروق كسالى) مع كونها واردة في الشِّعر القديم[14].

ويذكر حافظ اسم "فورد" صاحب أقدم وأشهر مصانع السيارات الأمريكية، ليعبِّر من خلاله على القدرة الصناعيَّة الهائلة التي تميَّزت بها أمريكا في مجال السيارات ومدى انتشارها في العالم كله، وكيف أغرت الناس جميعا فتنافسوا في الحصول عليها مما أدى إلى قوتهم الاقتصادية. وحينما يقول:

وانتزعتم من كل شبر بظهر الـ أرض أو بطنهـا المحجَّـب مـالا

فهو يشير هنا إلى حرص الأمريكان على قوة اقتصادهم سواء من خلال تجارة منتجاتهم (على ظهر الأرض) أو التنقيب عن الكنوز الطبيعية (في باطن الأرض) فهم لا يألون جهدًا في دعم اقتصادهم وبناء حضارتهم.

ثم يشير في البيت الأخير إلى ناطحات السحاب وهذا التطور العمراني المذهل:

وَأَقَمتُم في كُلِّ أَرضٍ صُروحًا تَنطَحُ السُحبَ شامِخاتٍ طِوالا

وفي ختام قصيدته لا يخفي آماله بأن يرى مصر على تلك القدم الحضارية:

لَيتَ شِعري مَتى أَرى أَرضَ مِصرٍ في حِمى اللهِ تُنبِتُ الأَبطالا

وَأَرى أَهلَها يُبارونَكُم عِلمًا وَوَثبًا إِلى العُلا وَنِضالا[15]

وكما أشاد بأمريكا، أشاد بإنجلترا الدَّولة المحتلة لبلاده، ففي قصيدة له يودع صاحبيه عند سفرهما إلى إنجلترا يقول:

سيرا إِلى مَهدِ العُلومِ الَّتي كانَت لَنا ثُمَّ اِزدَهاها البِلى

سيرا إِلى الأَرضِ الَّتي أَنبَتَت عِزًّا وَأَضحَت لِلمَلا مَوئِلا

يَمشي عَلَيها الدَهرُ مُستَخذِيًا وَتَجزَعُ الأَحداثُ أَن تَنزِلا

شِعارُ أَهليها وَأَبنائِها أَن يَعلَمَ المَرءُ وَأَن يَعمَلا[16]

نلاحظ في هذه القصيدة أنه وصف إنجلترا بـ"مهد العلوم" وأنها هي الأرض التي أنبتت عزًّا وتحصنت بالقوة، فالدهر يحترمها، والنوازل تخشى أن تحل بها. لقد استولى الإعجاب على الشاعر لدرجة اعتقاد العصمة في هذه البلاد التي اتخذت من العلم والعمل شعارًا لها.

وفي قصيدة له قالها عند تعيين السير "مكماهون" معتمدًا لمصر سنة 1915م، وبعد أن يتودد إليه ويطلب منه بعض المطالب الوطنية آنذاك، يشرع في الإشادة بالإنجليز وحضارتهم ونبل أخلاقهم، يقول:

أَنـــتُم أَطِبّـــاءُ الشُـــعو بِ وَأَنبَـــلُ الأَقـــوامِ غايَـــه
أَنّـــى حَلَلـــتُم فـــي الـــبِلا دِ لَكُـــم مِـــنَ الإِصـــلاحِ آيَـــه
رَسَـــخَت بِنايَـــةُ مَجـــدِكُم فَـــوقَ الرَوِيَّـــةِ وَالهِدايَـــه
وَعَـــدَلتُمُ فَمَلَكـــتُمُ الـــ دُنيـا وَفـي العَـدلِ الكِفايَـه[17]

فهم في نظر الشاعر أطباء الشعوب، ذوو غايات نبيلة، أهل الإصلاح، أهل المجد، أهل العدل الذي به ملكوا الدنيا، وقد يكون الشاعر هنا في هذه الصفات الإنسانية خاصة متعمدًا المجاملة، ليتسنى له تحقيق مطالبه الوطنية منهم، خاصة وأن الشاعر في معرض مدح المعتمد البريطاني القادم لمصر، والذي يأمل أن يخطو خطوات نحو الاستقلال بدليل قوله مخاطبا مكماهون:

أَوضِـــح لِمِصـــرَ الفَـــرقَ مـــا بَـــينَ السِـــيادَةِ وَالحِمايَـــه
وَأَزِل شُـــــكوكًا بِـــــالنُفو سِ تَعَلَّقَـــت مُنـــذُ البِدايَـــه
وَدَعِ الوُعـــــودَ فَإِنَّهـــــا فيمـا مَضـى كانَـت رِوايَـه[18]

أي أن ذلك مدح موجَّهٌ لتحقيق هدف معين، والواقع أن حافظ إبراهيم في مدحه لإنجلترا كان أكثر تركيزًا على الجانب المادي في الحضارة؛ لأن الجانب الإنساني للطرف المحتل الغاصب لن يكون بارزًا في عالم السِّياسة، عالم المصلحة والنَّفعيَّة، فإن ذُكِرَ في قصيدة فإنما يذكر من أجل التنبيه أو هو دهاء المادح الذي يستدر الصفات المأمولة من الممدوح الذي أُكره على مدحه حتى يتحلى بها اقتناعًا أو استحياء.

وفي هذا الذي سبق ردٌّ – يراه الباحث منطقيًّا – على اتهام وجهه أستاذنا الدكتور شوقي ضيف إلى حافظ؛ حيث قال: "وندّت على لسانه كلمات لمكماهون معتمد الإنجليز، أخطأ فيها القصد، والتوى به السبيل. ويأسى الدَّارس لحافظ أن يتحول في هذه الفترة من شاعر للشعب إلى شاعر للظروف والأحداث والمناسبات الطائرة"[19].

وفي قصيدته في رثاء الملكة فكتوريا سنة 1901 م يذكر الشاعر آيات العظمة في الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس فيرثي مليكتها بقوله:

أَمالِكَـــةَ البِحـــارِ وَلا أُبـــالي إذا قـالوا تَغـالى فـي المَقـالِ
فَمِثلُ عُلاكِ لَم أَرَ في المَعالي وَلا تاجًا كَتاجِكِ فـي الجَـلالِ
وَلا قَومًا كَقَومِكِ فـي الـدَهاءِ
مَـلَأتِ الأَرضَ أَعلامًـا وَجُنـدا وَشِدتِ لِأُمَّةِ السَكسونِ مَجدا
وَكُنـتِ لِفَألِهـا يُمنًـا وَسَـعدا تَرى في نورِ وَجهِكِ إِن تَبَدّى
سُعودَ البَدرِ فـي بُرجِ الهَنـاءِ
وَكُنـتِ إِذا عَمَـدتِ لِأَخـذِ ثـارِ أَسَلتِ البَرَّ بِالأُسدِ الضَـواري
وَسَـيَّرْتِ المَـدائِنَ فـي البِحـارِ وَأَمطَـرتِ العَـدُوَّ شُـواظَ نـارِ
وَذَرَّيتِ المَعاقِلَ فـي الهَواءِ[20]

فهو يصفها بمالكة البحار التي لم يَر تاجًا كتاجها، أو ملكًا كملكها، أو قومًا كقومها؛ حيث حكمت وتحكمت في أهل الأرض بما حققته من أمجاد وبطولات عمت البر والبحر والجو، ويعبر عن إعجابه بالأسطول الإنجليزي من خلال صورة "المدائن" التي وصف بها السفن العملاقة التي يجاور بعضها بعضا فكأنها عمائر سكنية تسير على الماء:

"وَسَيَّرْتِ المدائن في البحار"

ونلحظ هنا ملحوظتين:

الأولى: أنه لم يشر إلى الجانب الأثير لديه في الحضارة المادية وهو "الطائرات" ذلك لأن القصيدة قيلت في وقت لم تكن الطائرات قد ظهرت فيه على النحو الذي ظهرت عليه بعد ذلك، فالقصيدة نشرت سنة 1901 أي قبل الحرب العالمية الأولى بأكثر من عشر سنين.

الثانية: أن حافظ إبراهيم أراد – بوصفه شاعرًا– أن يترفَّع عن المصلحة الشَّخصيَّة عند الرثاء، خاصة وأن شعر الرثاء يحمل القدر الأكبر من الجوانب الإنسانية، وبالتالي يصبح شعره ذا طبيعة عالمية. وقد يجدي ذلك فيما بعد عن نقد المستعمر أو مواجهته بأساليبه السياسية.

وقد لاحظ الدكتور محمد حسين هيكل أن حافظًا كان يرنو إلى العالميَّة في شعره وقصائده التي قالها عن بعض الأحداث الغربية كزلزال مسّينا بإيطاليا وغير ذلك من رثاء الشخصيات العالمية التي تدل على هذا المنحى. ويقول معقبًا "وأحسب لو أن حافظا استمر في هذا الطريق... لحلّق في الشعر العالمي إلى سماء غايةً في الرفعة"[21].

لقد كان حافظ مغرمًا بأوروبا، آملًا بأن يقوم الشرق من رقدته ويتنسَّم نسائم الحرية في الفكر والإبداع، وحتى في مجال الشعر والأدب، فعلى الرغم من كونه علمًا من أعلام مدرسة الإحياء والبعث، فإنه كان معجبًا بالآداب الغربية، مستعدًا أن يقوم بثورة في مجال الشعر، تغيّر التقاليد القديمة إلى اهتمام بالقضايا الإنسانيَّة الحديثة، يقول في قصيدته التي عنونها بـ"الشعر":

آنَ يـا شِـعرُ أَن نَفُـكَّ قُيـودًا قَيَّـدَتنا بِهـا دُعـاةُ المُحـالِ

فَـارفَعوا هَـذِهِ الكَمـائِمِ عَنّـا وَدَعونـا نَشُـمُّ ريـحَ الشَـمالِ[22]

فلقد سئم الشَّاعر من التقاليد الشِّعرية القديمة التي يحرص عليها المتعصبون في عصره والذين أطلق عليهم "دعاة المحال" ثم صوّر هذه التقاليد المفروضة عليهم بأنها كمائم كممت أفواه الشُّعراء، ومن ثم فهو ينادي برفعها حتى "يشم ريح الشمال" هذا التعبير المجازي الذي يكنى به عن التواصل مع الذوق الغربي المتحرر.

ونجد في ديوان حافظ بيتين قالهما تحية لأدباء الغرب حينما اجتمعوا لتكريمه[23]:

قَـدَ قَرَأنـاكُمُ فَهَـشَّت نُهـانا فَاقتَبَسْنا نورًا يُضيءُ السَبيلا

فَاقرَأونا وَمَن لَنا أَن تُصيبوا بَينَ أَفكارِنا شُعاعًا ضَئيلا

ويبدو من البيتين أنه معتزٌّ بما استفاده من قراءته لأدب الغرب؛ حيث يمثل ذلك بالنسبة إليه انتعاشًا وتطورًا ونورًا يضيء السبيل على حد قوله. كما يبدو استحياؤه عند المقارنة؛ حيث يتمنى أن يستفيدوا هم ولو قليلًا من أفكارنا الشَّرقيَّة. وقد يكون ذلك من باب التواضع الذي يستدعيه موقف التكريم، ذلك لأنه في مواضع أخرى من ديوانه كان أكثر اعتزازًا وفخرًا بالأدب العربي ومبدعيه كما سيأتي لاحقًا في مبحث المقارنة.

والشَّاعر في نظرته للغرب طالما يأمُل في مزيد من التعارف الثقافي والتقارب الأدبي وتقديم صورة مشرفة عن الأدب العربي لديه حتى يقدر الغربيون هذا الإنسان الشرقي الذي تكمن بداخله مقومات الحضارة.

من هنا قدم حافظ تحية صادقة إلى "واصف غالي بك" الذي ألّف كتابا سماه "حديقة الأزهار" ترجم فيه قصائد منتقاه من الشعر العربي القديم إلى اللُّغة الفرنسيَّة، وقدمه إلى الغرب مشيدًا بالعرب وشعرهم وحكمتهم. وكان "واصف

غالي" يتردد كثيرًا على فرنسا، ويلقي محاضرات بين المثقفين والأدباء يبرز فيه الوجه المضيء للحضارة العربيَّة. يقول حافظ مخاطبًا صاحب الكتاب[24]:

يا صاحِبَ الرَوضَةِ الغَنّاءِ هِجتَ بِنا ذكرى الأَوائِلِ مِن أَهلٍ وَجيرانِ
نَشَرتَ فَضلَ كِرامٍ في مَضاجِعِهِم جَرَّ الزَمانُ عَلَيهِم ذَيلَ نِسيانِ
إِنّي أُحَيّيكَ عَنهُم في جَزيرَتِهِم وَفي العِراقِ وَفي مِصرٍ وَلُبنانِ

وبعد هذه التحية العربيَّة يبدأ في الإشادة بملكته اللُّغويَّة من إتقان اللغة الفرنسية لدرجة أن الفرنسيين يودون لو أنه واحد منهم في الوقت الذي لا يستغني عنه العرب:

ظَنّوكَ مِنهُم وَقَد أَنشَأتَ تَخطُبُهُم بِما عَنا لَكَ مِن سِحرٍ وَتِبيانِ
ما زِلتَ تَبهَرُنا طَورًا وَتَبهَرُهُم حَتّى اِدَّعاكَ وَحَيّاكَ الفَريقانِ
لَولا اِسمِرارُكَ فازوا في اِدِّعائِهِمُ "بِواصِفٍ" وَخَسِرنا أَيَّ خُسرانِ[25]

فلولا لونه الأسمر – كما يقول حافظ – لاختطفه الفرنسيون وضموه إلى صفوفهم وخسرنا.

ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف كتابه المترجم وما به من أشعار أبي تمام والبحتري والمتنبي وغيرهم وما تحمله هذه الأشعار من المعاني الرائعة والصياغة المحكمة. يقول:

غَرَسْتَ مِن زَهَراتِ الشَرقِ طائِفَةً في أَرضِ هيجو فَجاءَت طُرفَةَ الجانِي[26]

ومن المعروف أن حافظ إبراهيم نفسه قد ترجم "البؤساء" لفيكتور هيجو وأشاد به في قصيدة مستقلة تحمل اسمه[27]، ولذلك فهو يعتز بمثل هذا الكتاب العربيّ الذي ينقل الذوق الشرقي إلى أرض هيجو "فرنسا" التي اتخذ أدبها مثلًا يحتذى، فكأنه يريد أن يقول: عليهم أن يستمعوا لنا أيضا:

أَسمَعْتَهُم مِن نَسيبِ القَومِ فَانطَلَقَتْ شُجونُ كُلِّ شَجِيِّ القَلبِ وَلهانِ
وَزِدتَهُم مِن كَلامِ البُحتُري قِطَعًا مِثلَ الرِياضِ كَسَتها كَفُّ نَيسانِ
سَل "أَلفَريدَ" "وَلامَرتينَ" هَل جَرَيا مَعَ الوَليدِ أَوِ الطائي بِمَيدانِ
وَهَل هُما في سَماءِ الشِعرِ قَد بَلَغا شَأوَ النَواسِيِّ في صَوغٍ وَإِتقانِ[28]

فهو ينافس بعمالقة الشِّعر العربي عمالقة الأدب الفرنسي، أمثال: هيجو ولامرتين وألفيرد ديموسيه، فهذا الكتاب المترجم هو صورة حية تُشهِد الغرب مآثر وإبداعات الشرق منذ عصر الجاهلية:

أَمسى كِتابُكَ كَالسيما يُعيدُ لَهُم مَرأى الحَوادِثِ مَرَّت مُنذُ أَزمانِ
قَد شاهَدا فيهِ تَحتَ النَقعِ عَنتَرَةً يُصارِعُ المَوتَ عَن عَبسٍ وَذُبيانِ[29]

وقد ذكر الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني أن حافظًا "كان الشَّاعر الوحيد من شعراء عصره الذي لم يحقد على المذهب الجديد في الأدب ولم يحاول قط أن يتناوله بالزراية أو التنقّص"[30].

ولا يفوتنا أن نشير إلى إشادة حافظ بالنموذج الغربي في قصيدته التي ألقاها بمدرسة مصطفى كامل سنة 1906م؛ حين ينعى على الشرق شقاءه وحرمانه من العلوم الحديثة التي كانت سببًا مباشرًا في النهضة الغربية، والتي انتشلت الغرب من حالة الضعف في العصور الوسطى إلى حالة القوة والهيمنة والتحكم –بالعلم– في القوى الطبيعية التي طالما صارعها الإنسان على مدى تاريخه ولم يستطع مغالبتها. يقول مخاطبا الشرق:

أَتَشــقى بِعَهــدٍ سَــما بِــالعُلومِ فَأَضــحى الضَــعيفُ بِهــا أَيِّــدا
إِذا شــاءَ بَــزَّ السُــها سِــرَّهُ وَأَدرَكَ مِــن جَريــهِ المَقصِــدا
وَإِن شــاءَ أَدنــى إِلَيــهِ النُجــومَ فَنــاجى المَجَــرَّةَ وَالفَرقَــدا
وَإِن شــاءَ زَعــزَعَ شُــمَّ الجِبــالِ فَخَــرَّت لِأَقدامِــهِ سُــجَّدا
وَإِن شــاءَ شــاهَدَ فــي ذَرَّةٍ عَــوالِمَ لَــم تَحــيَ فيهــا سُــدى
زَمــانٌ تُسَــخَّرُ فيــهِ الرِيــاحُ وَيَغــدو الجَمــادُ بِــهِ مُنشِــدا
وَتَعنــو الطَبيعَــةُ لِلعــارِفينَ بِمَعنــى الوُجــودِ وَسِــرِّ الهُــدى
إِذا مــا أَهــابوا أَجــابَ الحَديــدُ وَقــامَ البُخــارُ لَــهُ مُســعِدا
وَطــارَت إِلَــيهِم مِــنَ الكَهرَبــا بُروقٌ عَلى السِلكِ تَطوي المَدى[31]

فهو هنا يعبر عن مدى تحكم الإنسان الغربي في مظاهر الطبيعة من حوله: إذا شاء فعل، وإن شاء فعل، ويستعين بالصور الفنية في التعبير عن تلك المبالغات التي تتماس مع القدرة الإلهية في الكون. فتذكرنا بالأساطير القديمة.

فهو يريد أن يقول: إن الإنسان الغربي اليوم أبهر النَّاسَ بعلمه وتطبيقاته، فسحر أعينهم، وأخذ ألبابهم، فأقرُّوا له بالمعجزات، وآمنوا بقدرته الكبيرة التي خوله إياها العلم، بأسلوبه الواضح الذي لا يكتنفه غموض الكهانة ولا طلاسم السحرة.

فالشاعر في هذه الأبيات صوَّر انقياد النجوم والجبال والرياح للإنسان بأنها تكون طوعًا أو كرهًا؛ حيث خضع الكل تحت التجارب العلمية، والشاعر يتصور أن العلم بمقدوره أن يفعل ما يريد، وهذا الكلام فيه نظر على المستوى العقدي أو الفكري، ولكن الشُّعراء –كما هو معروف– تدفعهم عواطفهم الملتهبة إلى المبالغات التي يتفهم أبعادها أهل التذوق الأدبي؛ حيث لا يقصدون بمبالغاتهم سوى التعبير عن إعجابهم المفرط بما يصفونه. فحينما يقول حافظ عن الغربي:

وإن شـــاء زعـــزع شُـــمَّ الجبـــا ل فخـــــرَت لأقدامـــــه سُـــــجدا

يذكرنا بقول عمر بن كلثوم:

إذا بلـــغ الفطـــامَ لنـــا رضـــيعٌ تخِـــرُّ لـــه الجبـــابرُ ســـاجدينا

فحافظ إبراهيم يشير إلى قدرة الإنسان على تفجير الجبال التي قد تعوق بعض مشروعاته على الأرض من خلال التطور العلمي الهائل في مجال المتفجرات الناسفة.

ويعلّق مقدمو الديوان[32] على قوله:

زمـــان تُســـخّر فـــي الريـــاح ويغـــدو الجمـــاد بـــه منشـــدا

فيذكرون أنه يشير في الشطر الأول إلى الطائرات، وفي الشطر الثاني إلى "الحاكي" يقصدون الفونوغراف (مشغل الاسطوانات) أو قد يكون المذياع أو الراديو.

وبعد أن يذكر الشاعر الكهرباء وثورة الاتصالات السلكية يوجه كلامه إلى الناشئة من أبناء مدرسة مصطفى كامل:

أَيَجمُـــلُ مِـــن بَعـــدِ هَـــذا وَذاكَ بِـــأَن نَســـتَكينَ وَأَن نَجمُـــدا

وَهـــا أُمَّـــةُ الصُّـــفرِ قَـــد مَهَّـــدَت لَنـــا الـــنَهجَ فَاِســـتَبَقوا المَـــورِدا

فَيـــا أَيُّهـــا الناشِـــئونَ اعمَلـــوا عَلـــى خَيـــرِ مِصـــرٍ وَكونـــوا يَـــدا

وأمة "الصُّفر" التي أشار إليها المقصود بها "اليابان"؛ حيث كرر هذا الوصف في أكثر من موضع من شعره وكان معجبًا بتحولهم الحضاري السَّريع ومنافستهم الغرب الأوروبي فاعتبرهم قدوة لأهل المشرق في النهوض بالعالم المتقدم.

ونقترب من صورة أخرى رسمها الشاعر لإحدى دول الغرب، وهي إيطاليا، البلد الأوروبي الذي سافر إليه، ووصف الرحلة منذ إقلاع السفينة التي تعرضت لعاصفة قوية وموج شديد، ولكن عناية الله تعالى لم تتخلّ عنها حتى وصلت.

ويصف الشاعر في هذه القصيدة جوانب جديدة من الحضارة الغربية أهمها: الاهتمام بالفنون، والجمال، واحترام قيمة الوقت، وتقديس العمل، والنظام، ونظافة البيئة، والحرية المسئولة.

فمن وصفه للاهتمام بالفنون يقول:

فيكِ يا مَهبِطَ الجَمالِ فُنونٌ لَيسَ فيها عَنِ الكَمالِ قُصورُ
وَدُمىً جَمَّعَ المَحاسِنَ فيها صَنَعُ الكَفِّ عَبقَرِيٌّ شَهيرُ
قَد أُقيمَت مِنَ الجَمادِ وَلَكِن مِن مَعاني الحَياةِ فيها سُطورُ
فَهيَ تَبدو مِنَ المَلائِكِ يَكسو ها جَمالٌ عَلى حِفافَيهِ نورُ
أُمِرتُ بِالسُكوتِ مِن جانِبِ الحَـ ـقِّ بِدُنيا فيها الأَحاديثُ زورُ[33]

وتركيز الشاعر هنا على الفنون التشكيلية التي برع فيها فنانو إيطاليا المشهورون وبخاصة صانعو التماثيل "الدمى" التي تبلغ دقتها وبراعة صانعيها أن تكاد تدب فيها الحياة على الرغم من كونها جمادًا.

قد أقيمت من الجماد ولكن من معاني الحياة فيها سفور

وقد يذكِّرنا هذا البيت بما قاله البحتري في إيوان كسرى عندما وصف اللَّوحة الشَّهيرة المرسومة على جدار الدِّيوان والتي تصوِّر معركة أنطاكية بدقة ومهارة عالية:

تَصِفُ العينُ أنهم جِدُّ أحيا ءٍ لهم بينهم إشارةُ خُرسِ
يغتلي فيهمُ ارتيابيَ حتَّى تستقرَّاهُمُ يداي بلَمْسِ

ولا يكتفي حافظ بدبيب الحياة في الصورة، بل يضيف تصويرًا آخر من خياله؛ حيث يصف هذه الدمى بالملائكة المكسوة بالجمال والنُّور، ويطوِّر معنى "إشارة الخرس" الذي سبقه إليها البحتري إلى معنى أكثر عمقًا ليصف حال الناس من حوله معبرًا عن شكواه:

أُمِرتْ بِالسُكوتِ مِن جانِبِ الحَق ... قِ بِـدُنيا فيهـا الأَحاديـثُ زورُ

فسكوت هذه التماثيل، إنَّما هو بأمر الحق، حتى يستبين الناسُ أنَّ الأحياء قد ألجأتهم المطامعُ والأهواء إلى أحاديث الزور والكذب. فالتماثيل أكثر حكمة منهم.

ثم ينتقل إلى وصف الطبيعة الخلابة التي لا يشوبها إلا تلك البراكينُ الكامنة تحت الأرض والتي سبق أن دمرت وأهلكت الحرث والنسل:

أَرضُـهُم جَنَّـةٌ وَحـورٌ وَوِلـدا ... نٌ كَمـا تَشـتَهي وَمُلـكٌ كَبيـرُ

تَحتَهـا وَالعِيـاذُ بِـاللَهِ نـارٌ ... وَعَـذابٌ وَمُنكَـرٌ وَنَكيـرُ

إِنَّ يَومًـا كَيَـومِ "رِدجـو" "وَمِسّيـ ... ـنـا" "وَكالبُرِيـا" لَيَـومٌ عَسـيرُ

ساعَةٌ مِنـهُ تُهلِكُ الحَرثَ وَالنَسـ ... ـلَ وَتَمحو ما سَطَّرَتهُ الدُهورُ[34]

فتلك الأيام التي أشار إليها هي أيام زلازل مشهورة اهتز لها العالم وتألم من أجلها.

ثم يتكلم عن احترام الغربي لقيمة الوقت فيقول:

قَسَّـموا الوَقـتَ بَـينَ لَهـوٍ وَجِـدٍّ ... فـي مَـدى اليَـومِ قِسمَةً لا تَجـورُ

كُلُّهُـم كـادِحٌ بَكـورٌ إِلـى الـرِزـ ... ـقِ وَلاهٍ إِذا دَعـاهُ السُـرورُ

لا تَـرى فـي الصَباحِ لاعِبَ نَـردٍ ... حَولَـهُ لِلرِهـانِ جَـمٌّ غَفيـرُ

لا وَلا بـاهِلًا سَـليمَ النَـواحي ... لِلقَهـاوي رَواحُـهُ وَالبُكـورُ[35]

فهو معجب بذلك الإنسان الذي لا يهمل عملَه، ولا ينسى نصيبَه من الدنيا، ولعل طبيعة شاعرنا كانت تدعم هذا الميل، فحافظ إبراهيم كان فنانا بطبيعته، يحب التنوع بين الجد واللهو، ولا يستقر في وضع روتيني[36].

وينتقل بعد ذلك إلى ولع الغرب بالنظافة فيقول:

وَلِـعَ القَـومُ بِالنَظافَـةِ حَتّـى جُـنَّ فيهـا غَنِـيُّهُم وَالفَقيـرُ
فَـإِذا سِـرتُ فـي الطَريـقِ نَهـارًا خِلتُ أَنّي عَلى المَرايا أَسيرُ[37]

ويظهر في البيتين السَّابقين الصيغةُ المصريةُ في الوصف وذلك حينما يعجب المصري بشيء نظيف فيصف بأنه كالمرآة، والشاعر كان معجبا بنظافة الطرق بإيطاليا فكأنه يسير على المرايا.

ثم يذكر النظام –قرين النظافة– وكيف دأب القوم على الالتزام به مع أن الشاعر نفسه –كما يقول– لا يلتزم بالنظام ويعتبره أسر وقيد:

أَفرَطَ القَومُ في النِظامِ وَعِندي أَنَّ فَـرطَ النِظـامِ أَسـرٌ وَنيـرُ
وَلَذيـذُ الحَيـاةِ مـا كـانَ فَوضـى لَـيسَ فيهـا مُسَـيطِرٌ أَو أَميـرُ
فَـإِذا مـا سَـأَلتَني قُلـتُ عَـنهُم أُمَّـةٌ حُـرَّةٌ وَفَـردٌ أَسـيرُ[38]

ويعلِّق حافظ هنا على ما سبق ذكرُه من عدم اهتمامه بالنظام حسب طبيعة أكثر الفنانين "ولذيذ الحياة ما كان فوضى" وليس المقصود بـ"الفوضى" هنا الخروج عن الآداب الاجتماعية أو الإضرار بالغير، بل مقصود بها تلك "الفوضى الخلاقة" التي تعني عدم التقيد بمظاهر النظام المعتادة من وضع كل شيء في موضعه المألوف، لأن الفنان من شأنه أن يغيّر ويبدع في تأليف الأشياء، فمن هنا كانت فوضى الفنان خلاقة أو مبدعة.

ولذلك نراه في البيت الأخير يوجز المراد كله ويختصر المشهد فيقول:

فَـإِذا مـا سَـأَلتَني قُلـتُ عَـنهُم أُمَّـةٌ حُـرَّةٌ وَفَـردٌ أَسـيرُ

أي أنهم يعيشون في حرية عامة لا يُكدّرها الفرد بنزواته ورغباته الخاصة، فهو أسير مقيَّد لحفظ حرية أمته؛ أي أن حريته مكفولة له بشرط عدم الإضرار بالآخرين من بني أمته.

كل تلك المقدمات قبل الحرب العالمية الأولى لم تكن تعني أن حافظًا كان غافلًا عن آفات الغرب وهو يقدِّم صورتهم المثالية في شعره، ولكن على أية حال نجد أن جلَّ رواد النهضة المصرية الحديثة كانوا على صلة بالغرب المتحضر، وكانت دول الغرب تتنافس في تبني رجالات الشرق وزعمائه لديها لعبًا على أوتار الحرّيات المزعومة وحقوق الإنسان، وفي الوقت ذاته طعنًا في القرين المنافس، ففرنسا على سبيل المثال تبنّت الشيخ محمد عبده فأصدر "العروة الوثقى" من أراضيها ليطعن في منافسهم اللدود العملاق البريطاني، فيُظهر للعالم فضائحهم الاستعمارية. وفي المقابل سعت إنجلترا إلى كشف المجازر الفرنسية بالجزائر وغيرها، فكان هذا التنافس في مصلحة الزعماء الوطنيين الذين انتهزوا الفرصة للمطالبة بحقوقهم المسلوبة، واقتضى هذا الأمر أن تكون هذه الفئة من الزعماء والمفكرين والأدباء على علاقة وثيقة بأضرابهم من مفكري العالم ومصلحيه في الشرق والغرب، ساعد على ذلك ثورة الصحافة وتطور وسائل الاتصالات في بداية القرن العشرين.

إذن فقد تشكل رأي عام عالمي جديد، يطالب بمنظمات دولية تراعي حقوق الإنسان، وكان لمفكري العالم وأدبائه دور ملحوظ عمل له السياسيون ألف حساب.

ولذلك حرص الإنجليز أنفسُهم أن يجذبوا إليهم شاعرَ النيل لما يعلمون من مكانته الشَّعبيَّة وشهرته الأدبية، مما يفسر هذا التَّناقض الذي قد يبدو من شاعرنا في نظرته إلى الغرب.

وقد نقل ابن أخت الشاعر في مقدمة الطبعة الثانية لديوانه عبارة مهمة لم يذكرها الأستاذ أحمد أمين في مقدمة الطبعة الأولى، فحواها: أن السكرتير الشرقي لدار المندوب السامي البريطاني واسمه مستر "سمارت" كان يزور حافظًا في بيته من حين إلى آخر ويدعو نفسه إلى مائدته الشرقية" وقد سأله حافظ ذات مرة عما دعاه إلى التعرف به ومصادقته وزيارته، فكان رد المستر سمارت أنهم يقدِّرون كلَّ وطني مخلص لبلاده ولو كان من ألدِّ أعدائهم !!"[39].

ثم يعقِّب بعد ذلك مؤكدًا وطنيَّة حافظ: "وعلى الرغم من زيارات أقطاب الحكام الإنجليز له في بيته، فلم يدخل حافظ دار المندوب السامي طوال حياته!!"[40].

فتلك الظروف والملابسات المحيطة جعلت الشاعر ينظر إلى الغرب نظرتين متناقضتين:

نظرة النموذج الإنساني المتحضر، ونظرة المستعمر القاهر المغتصب.

ويظل الموقف أو المناسبة أو مقتضى حال الشاعر هو المتحكم في هيمنة إحدى النظرتين على الأخرى أو توازنها أو المقارنة بينهما، ولكن يبقى في النهاية لكلتا الصورتين أثرهما الواضح في نتاج الشاعر.

المبحث الثاني:

الصُّورة الاستعماريَّة

أشرنا فيما تقدَّم عن أثر الحرب العالميَّة الأولى في نفس الشَّاعر بل في نفوس أضرابه من المنبهرين بحضارة الغرب؛ حيث سقطت الأقنعة وكشَّر الغربُ عن أنيابه ولم يعد للنموذج المتحضر ثبات أمام الغرائز الوحشيَّة للكائن الإنساني، تلك الغرائز التي تمثَّلت في الطَّمع، والعدوانيَّة، وحبِّ السيطرة والتملك، وحب الاستعلاء، والأنانية، وقهر الضعيف، فما أشبه دنيا الإنسان بغابة الحيوان، بل ما أشبه الإنسان بنفسه، فالحيوان أرفق منه، الحيوان يكتفي بإشباع غرائزه الطبيعية، أما الإنسان فلا تتوقف مطامعه، لقد حصدت الحرب أرواح ملايين البشر. فأين الحضارة والتحضُّر؟ وأين الشعارات الإنسانيَّة المزعومة؟

والشَّاعر لا يحاسَب بمنطق البشر المعتاد؛ لأنه يتكلم بمقتضى حاله، ولذلك قالوا قديمًا "أشعر الشُّعراء فلان إذا رغب، أو فلان إذا رهب، أو فلان إذا طرب"[41] ومع ذلك يبقى في الشعر سرُّ الحكمة، وتبقى في الشاعر سرُّ الكلمة.

نعم، أُعجِبَ حافظ إبراهيم بالغرب، ومدح كثيرًا من صفات أهله وعلومهم ومنجزاتهم الحضارية الرائعة؛ بيد أنه كان يعلم جيدًا أنهم ليسوا ملائكة بل إنهم – أحيانًا– أقرب إلى الشياطين.

لم يفاجأ حافظ بطباعهم التَّدميريَّة عند اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة 1914م، ولكن هذا التَّاريخ كان نقطةً فاصلة في كشف القناع الزَّائف، فمنذ رحلته المبكرة إلى السودان أتيح له أن يتعامل معهم على المستوى العسكري، فقد كان ضابطًا بالجيش المصري بالسودان، واشترك في ثورة الضباط الذين تمردوا على قادتهم الإنجليز، وحوكم أمام المحاكم العسكريَّة، وأحيل مع ثمانية عشر ضابطًا إلى الاستيداع[42].(أي الإقالة من العمل)

ولا يُستغرب هذا من شاعر شاب التقى في مراحل تعليمه الأولى الزعيمَ الوطنيَّ مصطفى كامل، وذلك في المدرسة الخيرية بالقلعة "حيث تزاملا في التعليم وكانت بين أسرتيها صلات قرابة ونسب، فقد كانت أم حافظ وأم مصطفى كامل بنتي خالة، ثم ما لبثت أن فرَّقت بينهما الأحداث، حتى التقيا ثانية في شبابها في الجهاد الوطني"[43].

أضف إلى ذلك ما عُرف من علاقة حافظ بزعماء مصر وروَّاد النهضة الثَّقافيَّة والوطنيَّة أمثال الشيخ محمد عبده، وسعد زغلول، وقاسم أمين، وغيرهم، "فأحبوه جميعًا وقرَّبوه إليهم، ووجدوا فيه ذخيرة وطنية تستحق المراعاة"[44].

ولذا كان يراسل الشيخ محمد عبده من السودان، ويشكو له كره "كتشنر" القائد الإنجليزي له[45]، ويطلب منه الرأي والمشورة. وكان يفاخر بكونه شاعر الشيخ محمد عبده وفتاه، يقول مخاطبًا إياه:

لَقَد بِتُّ مَحسودًا عَلَيكَ لِأَنَّني فَتاكَ وَهَل غَيرُ المُنَعَّمِ يُحسَدُ
فَلا تُبلِغِ الحُسّادَ مِنّي شَماتَةً فَفِعلُكَ مَحمودٌ وَأَنتَ مُحَمَّدُ[46]

"ولما عاد من السودان وجد سلواه في مجلس الأستاذ الإمام ... حيث كان يذهب إليه وينشده شعره، كما كان يتلقى عطف الأستاذ عليه"[47].

ويؤكِّد الدكتور زكي مبارك على مدى العلاقة الحميمة بين حافظ إبراهيم وزعيم الأمة سعد زغلول، فيذكر أن سعد زغلول تعلَّق به تعلقًا شديدًا[48].

كما نجده في سن مبكرة يأخذ على العثمانيين إهمالَهم دولة الخلافة وتركها فريسةً للأطماع الاستعماريَّة، جاء ذلك في قصيدة نشرها سنة 1900م عنونها بـ"الإخفاق بعد الكد" وفيها ينعي مجدَ الترك والعرب، يقول فيها:

يا آلَ عُثمانَ ما هَذا الجَفاءُ لَنا وَنَحنُ في اللهِ إِخوانٌ وَفي الكُتُبِ
تَرَكتُمونا لِأَقوامٍ تُخالِفُنا في الدينِ وَالفَضلِ وَالأَخلاقِ وَالأَدَبِ[49]

فيعيب عليهم أن تركونا للاستعمار الغربي يفعل بأرضنا ما يشاء بالقهر والبطش، ولم تكن الثورة العُرابيَّة ببعيدة عن هذا الوقت، فلم يكد يمضي أقلُّ من عشرين عامًا على الاحتلال حتى أحسَّ الشَّعبُ بأن خيرات أوطانهم قد نُهبَت، في حين يشتكي أصحاب الأرض الفقرَ والعوزَ:

أَيَشـــتَكي الفَقـــرَ غادينـــا وَرائِحُنـــا وَنَحنُ نَمشي عَلى أَرضٍ مِنَ الذَهَبِ
وَالقَومُ في مِصرَ كَالإِسفِنجِ قَد ظَفِرَت بِالماءِ لَم يَترُكوا ضَرعًا لِمُحتَلِبِ[50]

نعم، إن "القومَ" أي الإنجليز بحضارتهم المزعومة وسياستهم الاقتصاديَّة المستغلة أصبحوا في مصر كالإسفنج التي امتصت ما ظفرت به من ماء، وهي صورة تدلُّ على مدى الشَّره الاستعماري، ثم يدعم ذلك بصورة أخرى في السِّياق نفسه؛ حيث صوَّر مِصْرَ بالبقرة الحلوب التي لم يتركوا فيها ضرعًا لمحتلب من أهلها.

وتُلقي حادثةُ دنشواي بظلالها القاتمة على مشهد الحياة في مصر في يونيو سنة 1906م، فينتفض الأدباءُ والمفكرون وزعماءُ الشعب انتفاضةً شهد بها التاريخ، وينبري حافظ شاعر النيل بسيل من الشِّعر الثَّائر تتجلى فيه صورة الغرب المتوحشة، وعنصريتهم البغيضة التي تتهاوى أمامها قيمُ الديموقراطية وحقوقُ الإنسان، فيتوجَّه إلى الإنجليز قادة الغرب وأدعياء العدالة فيقول:

أَيُّهـــا القـــائِمونَ بِـــالأَمرِ فينـــا هَـــل نَسَـــيتُم وَلاءَنـــا وَالـــوِدادا
خَفِّضـــوا جَيشَـــكُم وَنـــاموا هَنيئـــا وَابتَغـــوا صَـــيدَكُم وَجوبـــوا الـــبِلادا
وَإِذا أَعـــــوَزَتْكُمُ ذاتُ طَـــــوقٍ بَينَ تِلكَ الرُبا فَصيدوا العِبادا[51]

ثم يُسقط بشعره على عصور الظلام في أوروبا، فيذكّر بمحاكم التفتيش وعهد نيرون الذي أحرق روما:

لَيتَ شِعري أَتِلكَ مَحكَمَةُ التَفـ تيشِ عادَت أَم عَهدُ نيرونَ عادا[52]

ثم يطلقها صرخةً ساخرةً من الضَّعيف المنتهكة حقوقه إلى القويّ الغاشم الذي لا يرحم:

إِنَّهـا مُثلَـةٌ تَشُـفُّ عَـن الغَيــ ـــظِ وَلَســـنا لِغَـــيظِكُم أَنـــدادا
أَكرِمونـــا بِأَرضِـــنا حَيـــثُ كُنـــتُم إِنَّمـــا يُكـــرِمُ الجَـــوادُ الجَـــوادا
إِنَّ عِشـرينَ حِجَّـةً بَعـدَ خَمـسٍ عَلَّمَتنـا السُـكونَ مَهمـا تَمـادى[53]

فالاحتلال الجاثم على صدر الأمة منذ خمسٍ وعشرين سنة لم يرحم هذه الأمة المستضعفة، بل سقطت الشعارات وسقط القناع عن الوجوه.

وبدأ شاعرنا يتبيَّن حقيقة الأمر من تفنن هؤلاء في التَّجمُّل أمام الشعوب وفي المحافل الدَّوليَّة والصحافة العالميَّة. كما بدأ يتبيَّن حقيقةَ الفارق بين المادية الغربيَّة والقيم الإنسانيَّة الحقيقيَّة، فقد أصبح لا يغتر بتلك المظاهر، وأصبح مدركًا ألاعيب المستعمر الغربي:

لَقَد كانَ فينا الظُلمُ فَوضى فَهُذِّبَت حَواشيهِ حَتّى باتَ ظُلمًا مُنَظَّما
تَمُنُّ عَلَينا اليَومَ أَن أَخصَبَ الثَرى وَأَن أَصبَحَ المِصرِيُّ حُرًّا مُنَعَّما[54]

فالإصلاحات الاقتصاديَّة التي يقوم بها المستعمر في بلادنا ما هي إلا دعم لرصيده المادي، أما صاحب الأرض فليذهب إلى الجحيم كما يقولون.

عَمِلـتُم عَلـى عِـزِّ الجَمـادِ وَذُلِّنـا فَـأَغلَيتُمُ طينًـا وَأَرخَصـتُمُ دَمـا
إِذا أَخصَـبَت أَرضٌ وَأَجـدَبَ أَهلُهـا فَلا أَطلَعَت نَبتًا وَلا جادَها السَما[55]

ويلجأ الشاعر إلى المفارقة ليبيّن مدى اهتمام الغربي المحتل بالأرض دون مراعاة لصاحبها، فيستعين بالتضاد بين "عز الجماد" و"ذل البشر" و"خصوبة الأرض" و"إجداب أهلها". فأين الحضارة؟ وأين العدالة والقيم الإنسانية العليا والشعارات التي بهرت العالم؟

وتبدو هذه الروح أيضًا في قصيدته التي قالها في اسقبال السير غورست سنة 1907م، وهو المعتمد البريطاني الذي خلف اللورد كرومر.

والقصيدة تحمل سخريةً بالغةً من دعاوى الإنجليز الخادعة ووعودهم الكاذبة واليأس من الخديوي والخليفة اللذين لا يملكان شيئًا:

إلـى مَـن نَشـتَكي عَنَـتَ اللَيـالي إلـى العَبّـاسِ أَم عَبـدِ الحَميـدِ

وَدونَ حِماهُمـا قامَـت رِجـالٌ تُرَوِّعُـنا بِأَصـنافِ الوَعـيدِ

ويتوجه إلى الإنجليز ساخرًا من وعودهم فيقول:

أَذيقونـا الرَجـاءَ فَقَـد ظَمِئنـا بِعَهدِ المُصلِحينَ إِلـى الـوُرودِ

وَمُنّـوا بِـالوُجودِ فَقَـد جَهِلنـا بِفَضلِ وُجودِكُم مَعنـى الوُجـودِ

إِذا اعلَولى الصِياحُ فَلا تَلُمنا فَـإِنَّ النـاسَ فـي جُهـدٍ جَهيـدِ

عَلى قَدرِ الأَذى وَالظُلمِ يَعلو صِـياحُ المُشـفِقينَ مِـنَ المَزيـدِ

ثم يطالب بأبسط "الحقوق" من أدعياء "حقوق الإنسان":

فَمـا جِئنـا نُطـاوِلُكُم بِجـاهٍ يُطـولُكُمُ وَلا رُكـنٍ شَـديدِ

وَلا بِتنـا نُعـاجِزُكُم بِعِلـمٍ يَبينُ بِهِ الغَوِيُّ مِنَ الرَشيدِ

وَلَكِنّـا نُطـالِبُكُم بِحَـقٍّ أَضَرَّ بِأَهلِـهِ نَقضُ العُهودِ

وقبيل الحرب العالمية الأولى برزت أطماعٌ جديدة للغرب في المشرق؛ حيث أقدمت إيطاليا على غزو ليبيا أسوةً بجارتيها الاستعماريتين إنجلترا وفرنسا، فأغارت بأسطولها على طرابلس سنة 1912م، فانتفض حافظ بقصيدته "حرب طرابلس" والذي قال فيها:

طَمَـعٌ أَلقـى عَـنِ الغَـربِ اللِثامـا فَاستَفِق يـا شَـرقُ وَاحـذَر أَن تَنامـا
وَاحمِلـي أَيَّتُهـا الشَـمسُ إِلـى كُلِّ مَن يَسكُنُ فـي الشَرقِ السَلامـا
وَاشـهَدي يَـومَ التَنـادي أَنَّنـا فـي سَـبيلِ الحَـقِّ قَـد مِتنـا كِرامـا
مـادَتِ الأَرضُ بِنـا حـينَ انتَشَـت مِـن دَمِ القَتلـى حَـلالًا وَحَرامـا[56]

فالشَّاعر قد أيقن أن اللِّثام الخادع من دعوى الغرب التحضُّر ومناصرة الضعفاء قد سقط، فقد أغار الطليان على طرابلس وأوقعوا في أهلها كلَّ صنوف الدمار:

كَبَّلـوهُم قَتَلـوهُم مَثَّلـوا بِـذَواتِ الخِـدرِ طـاحوا بِاليَتـامى
ذَبَحـوا الأَشـياخَ وَالزَمنـى وَلَـم يَرحَمـوا طِفلًا وَلَـم يُبقـوا غُلامـا[57]

ثم يكشف عن زيف نواياهم التي دخلوا بها المعاهدات الدَّوليَّة التي تحترم حقوقَ الإنسان وتمنع أسباب الحروب كما حدث في مؤتمر لاهاي سنة 1899م:

أَحرَقوا الدورَ استَحَلّوا كُلَّ ما حَرَّمَت "لاهايُ" في العَهدِ احتِرامـا[58]

ثم يكشف حافظ أيضًا عن نواياهم الصَّليبيَّة الدَّفينة، وكيف أن المطران، ويقصد به بابا الفاتيكان، قد بارك أعمالهم:

بـارَكَ المَطـرانُ فـي أَعمـالِهِم فَسَـلوهُ بـارَكَ القَـومَ عَلامـا
أَبِهَـذا جـاءَهُم إِنجـيلُهُم آمِـرًا يُلقـي عَلـى الأَرضِ سَـلامـا
كَشَـفوا عَـن نِيَّـةِ الغَـربِ لَنـا وَجَلَـوا عَن أُفُقِ الشَـرقِ الظَلامـا[59]

فهو يؤكد أنها أطماع دنيوية يبرأ منها الإنجيل، كشفت عن نوايا الغرب إزاء الشرق.

ولحافظ إبراهيم منظومةٌ تمثيلية قالها عقب ضرب الأسطول الطلياني لمدينة بيروت انتقامًا من الأتراك ضمَّنها طرفًا كبيرًا من هذه النَّظرة الأخرى للغرب

المستعمر المتوحش مفتخرًا بالشَّرق ومقتديًا بأمة (اليابان) التي أسرَت شعراء المرحلة بنهضتها الحضارية الشَّرقيَّة يقول على لسان جريح عربي:

وَلْـــيَعلَمِ الغَـــربُ أَنّـــا كَأُمَّـــــةِ اليابـــــانِ
لا نَرتَضـــي العَـــيشَ يَجـــري فـــي ذِلَّـــةٍ وَهَـــوانِ
أَراهُـــــمُ أَنزَلونـــــا مَنـــــازِلَ الحَيَـــــوانِ
وَأَخرَجونـــــا جَميعًـــــا عَـــن رُتبَـــةِ الإِنســـانِ
وَسَـــوفَ تَقضـــي عَلَـــيهِمُ طَبـــــائِعُ العُمـــــرانِ
فَيُصـــبِحُ الشَـــرقُ غَربًـــا وَيَســـتَوي الخافِقـــانِ[60]

فهو هنا ينتقد تلك العنصريَّة الغربيَّة التي برزت بوجهها القبيح ويأمل في نهضة الشَّرق التي ستأتي حتمًا حسب سُنَّة الحياة {وتلك الأيام نداولها بين الناس} وتلك هي "طبائع العمران" على حد قوله.

وفي المنظومة نفسها يوجِّه خطابًا شعريًّا لاذعًا للحضارة الغربية الخادعة التي تمثِّلها إيطاليا المعتدية:

أُفٍّ لِقَـــــومٍ جِيـــــاعٍ قَـــد أَزعَجـــوا العالَمينـــا
....
وَأَلبَســـوا الغَـــربَ خِزيًـــا فـــي قَرنِـــهِ العِشـــرينا
وَأَلجَمـــــوا كُـــــلَّ داعٍ وَأَحرَجـــــوا المُصـــــلِحينا
فَيـــــا أُرُبَّـــــةُ مَهـــــلًا أَيـــنَ الَّـــذي تَـــدَّعينا[61]

وقُبيل الحرب العالمية الأولى كادت تكتمل لدى حافظ تلك النَّظرة الأخرى، فقد نضجت تجربته في الحياة؛ حيث جاوز الأربعين وبدأ يدرك أن الحضارة ليست حكرًا على شعب دون شعب، فالأيام دول، وليس الأمس الزاهر لهذا المشرق ببعيد، وإن غدًا لناظره قريب. ويلعب الأمل والطموح دوره مع حافظ

حينما ترده الأخبار أن هناك محاولةً لأول طيار مسلم سيقلع بطائرته من تركيا إلى مصر سنة 1914م ، وعلى الرغم من أن طائرته سقطت به قبل إتمام الرحلة، فإن حافظًا نشر قصيدة كان قد أعدها لاستقباله وفاءً لذكراه[62]، وضمَّنها بعض انطباعاته عن الغرب والشرق، يقول فيها:

أَهـــلًا بِـــأَوَّلِ مُســـلِمٍ فـــي المَشـرِقَينِ عَـلا وَطـار
النيـــلُ وَالبُســـفورُ فيـــ كَ تَجاذَبـــا ذَيـــلَ الفَخـــار
يَـــومَ امتَطَيـــتَ بُراقَـــكَ الـــ مَيمـــونَ وَاِجتَـــزتَ القِفـــار[63]

ويقول معرّضًا بالغرب واستغلاله هذا التطور العلمي في التعدي على الآخرين جورًا وظلمًا:

مـــا لِإبـــنِ آدَمَ زادَ فـــي غُلَوائِـــهِ فَطَغـــى وَجـــار
يـــا لَيـــتَ شِـــعري هَـــل لَـــهُ فـــي عـــالَمِ المَلَكـــوتِ ثـــار
أَم لاذَ مُعتَصِـــمًا بِكُـــر سِـــيِّ المُهَـــيمِنِ وَاِســـتَجار
فَاســـتَلَّ مِـــن قَلـــبِ الجَمـــا دِ الصُـــلبِ أَجنِحَـــةً وَطـــار[64]

وهي أبيات تعبِّر عن هذا الغربي الطموح الظالم، الذي وظّف الإمكانات الهائلة التي أولاه الله إياها في مبارزة الطبيعة بدلًا من التصالح معها بنشر المودة والسلام.

ونلاحظ أن صياغة البيت الأخير "استل من قلب الجماد الصلب أجنحة وطار" تحمل دلالات متعددة ومتناقضة في الوقت نفسه، ففيها القوة والقدرة والإبداع، وفيها القسوة والصلابة، وفيها الطموح والنجاح والإعجاب، فهي تعبر عما بداخل حافظ من مشاعر متناقضة إزاء الغرب والحضارة الغربية.

وتأتي الحرب العالمية الأولى بكوارثها المروعة التي أزهقت ملايين الأرواح وخربت البلاد، وكان العلم فيها وبالًا على الإنسان؛ فينفث حافظ نفثته الشهيرة "الحرب العظمى" ويقول:

لاهُـمَّ إنَّ الغَـربَ أَصـبَحَ شُـعلَةً مِـن هَولِهـا أُمُّ الصَـواعِقِ تَفـرَقُ
العِلـمُ يُـذكي نارَهـا وَتُثيرُهـا مَدَنِيَّـةٌ خَرقـاءُ لا تَتَرَفَّـقُ
وَلَقَـد حَسِـبتُ العِلـمَ فينـا نِعمَـةً تَأسـو الضَـعيفَ وَرَحمَـةً تَتَـدَفَّقُ
فَـإِذا بِنِعمَتِـهِ بَـلاءٌ مُرهِـقٌ وَإِذا بِرَحمَتِـهِ قَضـاءٌ مُطبِـقُ[65]

فالعلم الحديث الذي بهر حافظًا وغيره قبل ذلك، وظنه الجميع نعمة ورحمة صار بلاءً ونقمة، تلك هي الحضارة، وهذا هو العلم، لقد انقلب السِّحر على الساحر.

ثم يواصل حافظ في قصيدته وصف المخترعات التدميرية الحديثة التي أهداها العلم للبشرية من بدايات للحرب الكيماوية وحرب الطائرات والغواصات البحرية والسفن المدججة بالسلاح بعد أن مضى عصر الرماة والسيوف:

عَجِزَ الرُماةُ عَنِ الرُماةِ فَأَرسَلوا كِسَفًا يَموجُ بِهـا دُخـانٌ يَخنُـقُ
تَتَعَـوَّذُ الآفـاقُ مِنـهُ وَتَنثَنـي عَنـهُ الرِيـاحُ وَيَتَّقيـهِ الفَيلَـقُ
وَتَنـابَلوا بِالكيمِيـاءِ فَأَسـرَفوا وَتَسـاجَلوا بِالكَهرُبـاءِ فَـأَغرَقوا
وَتَنـازَلوا فـي الجَـوِّ حينَ بَـدا لَهُـم أَنَّ البَسـيطَةَ عَـن مَـداهُم أَضـيَقُ
نَفِسوا عَلى الحيتـانِ واسِـعَ مُلكِها فَتَفَنَّنـوا فـي سَـلبِهِ وَتَـأَنَّقوا
مَلَكـوا مَسـابِحَها عَلَيهـا بَعـدَ مـا غَلَبوا النُسورَ عَلى الجِواءِ وَحَلَّقوا[66]

فيذكر هنا أن البشر حينما عجزوا عن المواجهة المعتادة في الحروب تفننوا في اختراع ضروب أخرى قاتلة، ساعدهم عليها العلم الحديث، فأرسلوا قطع الدخان من الغازات السامة التي تبيد كل من يقع تحت براثنها. ويصور حافظ

مدى الرهبة من هذه الحرب الكيماوية، فيجعل الطبيعة والآفاق تتعوذ منها، ويصور الرياح تنثني من بأسها وفتكها، ناهيك عن الجيوش البشرية الجرارة التي تخشى التعرض لمثل هذه الغازات السامة.

فانتشر وشاع التنافسُ والتنابل بمنتجات العلم التدميرية من الكيمياء والكهرباء. وصار الصراع في البر والبحر والجو بصور مبتكرة غير تقليدية حيث سلبوا ملك الحيتان بالغواصات والسفن، وسلبوا ملك النسور بالطائرات والصواريخ.

ثم يطلق حافظ في خاتمة قصيدته جملة تعبيرية شرطية تجري مجرى الحكمة، وتحمل خلاصة التجربة المريرة، وتلخص الصورة الأخرى(الوحشية) للغرب في نظره:

إن كـان عهـدُ العلـمِ هـذا شـأنُه فينـا، فعهـدُ الجاهليـة أرفـقُ[67]

وكأنه يصرّح بأنَّ تلك الصورة المثالية الخادعة إنَّما هي وجه ظاهر يخفي وراءه شره الإنسان وجهالته العمياء.

ويبدأ حافظ في توجيه انتقادات لمثيري الحرب العالمية من زعماء العالم، فيوجه قصيدة إلى "غليوم الثاني" إمبراطور ألمانيا ينكر عليه ما فعله من اعتداءات على فرنسا وهدمه الكنائس والمعابد بما لا يرعى احترامًا لمقتضيات الحضارة الإنسانيَّة:

لِلَّهِ آثـــارٌ هُنـــاكَ كَريمَـــةٌ حَسَدَت رَوائِعَ حُسنِها بِرلينُ
طاحَـت بِهـا تِلـكَ المَـدافِعُ تـارَةً لَمّـا أَمَـرتَ وَتـارَةً زِبلـينُ[68]

ويقصد "بزبلين" هنا نوعًا من الطائرات سمّي باسم مخترعه الكونت "زبلين" الألماني[69]. ثم ينتقد هدمه لمدينة "رمس" الفرنسية، وهي المدينة المشهور بكنيستها التاريخيَّة التي خربها:

إن كُنتَ أَنتَ هَدَمتَ رِمسَ فَإِنَّـهُ أَودى بِمَجـدِكَ رُكنُهـا المَوهـونُ
لَـم يُغـنِ عَنهـا مَعبَـدٌ خَرَّبتَـهُ ظُلمًا وَلَم يُمسِك عِنانَكَ دينُ[70]

ثم يعرّض بغنى الإمبراطورية الألمانية وامتلاكها القوة الاقتصادية التي يفترض أن تغنيها عن الحروب فيقول:

نَظَمَت تِجارَتُكَ المَدائِنَ وَالقُرى فَالنيلُ ناءَ بِها وَناءَ السينُ
فَبِكُلِّ أَرضٍ مِن رِجالِكَ عُصبَةٌ وَبِكُلِّ بَحرٍ مِن لَدُنكَ سَفينُ[71]

ثم يتساءل أخيرًا:

فَعَـلامَ أَرهَقـتَ الـوَرى وَأَثَرتَهـا شَـعواءَ فيهـا لِلهَـلاكِ فُنـونُ؟

ويوجّه انتقاداته اللاذعة إلى المستعمر الإنجليزي الذي واجه مظاهرة للسيدات سنة 1919م بالبطش والقهر، ويسخر من تلك الصولة الخرقاء لجيش بريطانيا العظمى الذي يدعي حقوق المرأة والحفاظ عليها وتكريمها ثم يتعامل معها بهذه الوحشية.

فالسيدات خرجن مؤيدات لسعد زغلول قاصدات داره، يمشين في كنف الوقار:

خَـــرَجَ الغَـــواني يَحتَجِجـــ ـــنَ وَرُحـتُ أَرقُـبُ جَمعَهُنَّـه
فَـــإِذا بِهِـــنَّ تَخِـــذنَ مِـــن ســـودِ الثِيـــابِ شِـــعارَهُنَّه
فَطَلَعـــنَ مِثـــلَ كَواكِـــبٍ يَسـطَعنَ فـي وَسَـطِ الدُجُنَّـه
وَأَخَـــذنَ يَجتَـــزنَ الطَريـــ قَ وَدارُ سَـــعدٍ قَصـــدُهُنَّه[72]

ويصوّر حافظ إبراهيم الجيش الإنجليزي وهو يحاصر سيدات مصر الحرائر بمنتهى القسوة بخيوله ومدافعه في الوقت الذي يحملن فيه الورد والريحان تعبيرًا عن حبهم لزعيم الأمة "سعد زغلول":

وَإِذا بِجَـــــيشٍ مُقبِـــــلٍ وَالخَيـلُ مُطلَقَـةُ الأَعِنَّـه

وَإذا الجُنـــــودُ سُـــــيوفُها قَـــد صُـــوِّبَت لِنُحورِهِنَّـــه
وَإذا المَــــدافِعُ وَالبَنـــا دِقُ وَالصَـــوارِمُ وَالأَسِـــنَّه
وَالخَيـــلُ وَالفُرســـانُ قَـــد ضَـرَبَت نِطاقًـا حَولَهُنَّـه
وَالـــوَردُ وَالرَيحـــانُ فـــي ذاكَ النَهـارِ سِـلاحُهُنَّه[73]

ثم يصف المعركة غير المتكافئة بعد ذلك بقوله:

فَتَطـــاحَنَ الجَيشـــانِ ســـا عـاتٍ تَشـيبُ لَهـا الأَجِنَّـه
فَتَضَعضَـــعَ النِّســـوانُ وَالـــ نِســوانُ لَــيسَ لَهُــنَّ مُنَّــه
ثُــــمَّ انهَــــزَمنَ مُشَــــتَّتا تِ الشَملِ نَحوَ قُصورِهِنَّه[74]

ويختم هذه اللوحة المصورة بتهنئة ساخرة إلى جيش بريطانيا العظمى بفوزه على ذوات البراقع، وإمعانًا في السُّخرية يذكر الشاعر أن الإنجليز بتصرفهم هذا كأنهم توهموا أن القائد الألماني الشهير "هندنبرج" جاء في هذه المظاهرة بجيشه الألماني المرعب لبريطانيا متخفيًا تحت البراقع بين هؤلاء النساء اللواتي استعملن كيدهن في تدبير هذه المؤامرة:

فَليَهنَـــأَ الجَـــيشُ الفَخـــو رُ بِنَصـــرِهِ وَبِكَســـرِهِنَّه
فَكَأَنَّمـــا الأَلمـــانُ قَـــد لَبِســـوا البَراقِـــعَ بَينَهُنَّـــه
وَأَتَـــوا بِهِنـــدِنبُرجَ مُخـــ تَفِيًـا بِمِصـرَ يَقودُهُنَّـه
فَلِـــذاكَ خـــافوا بَأسَـــهُن نَ وَأَشـفَقوا مِـن كَيدِهِنَّـه[75]

وهذه القصيدة كانت توزع في منشورات وطنية سنة 1919م، وتأخر نشرها في الصحف إلى 12 مارس 1929م بسبب الظروف السياسية التي تمر بها البلاد[76].

وقد اتُّهم حافظ من قبل بعض الباحثين[77] بأنه تراجع عن مواقفه الوطنية وعدائه للغرب بعد أن تسلم مهام وظيفته بدار الكتب سنة 1911م. والباحث لا

يوافق على هذا الرأي، فمع استعراضنا للقصائد الوطنية التي أعقبت هذا التاريخ وحتى تاريخ وفاته لم نجد تراجعا في مواقفه الوطنية، بل على العكس نجد أن الصورة الاستعمارية للغرب قد تبلورت لديه، وليس أدلّ على ذلك من قصيدة (مصر) التي نشرها سنة 1921م، وقصيدة (تصريح 28 فبراير) سنة 1922م، وكذلك القصيدة السابقة في مظاهرة السيدات سنة 1919م، وغير ذلك من القصائد التي استعرضناها في هذا البحث.

ولقد برزت الأصالة الفنية في تناول حافظ لصورة الغرب بشقيها الإيجابي والسلبي، والأصالة التي نقصدها "هي التي تجعل من كل أثر فنّي صورة متميزة تحمل روح كاتبها ومزاجه، ولفتات ذهنه، وقدراته على التعبير، ومدى ما يتصف به من صفات فنية مختلفة"[78].

المبحث الثالث:

المقارنة بين الشَّرق والغرب

أشرنا فيما تقدم إلى أن شاعر النيل لم يخرج عن إطار عصره، فقد تأثر بكل ما فيه من تيارات سياسية وفكرية ناشئة، أصلية أو وافدة، تلقائية أفرزتها الأحداث أو مدَّبرة من قبل المستعمر، والطبيعي أن يكون الشاعر ابن بيئته، وأن يكون شعره صدى لما فيها.

انشغل حافظ كثيرًا بهموم وطنه، وكان ذلك دافعًا له أن يبحث عن مخرج لأزمته، فالاستعمار أصبح أمرا واقعا لا محيص عنه، وعليه أن يتعايش مع واقع الأمر الذي فرض نفسه، والعالم الجديد –وإن تغيرت ملامحه– لا يحترم إلا القوي، ومع أن الواقع مرير فإن الشاعر لا بد أن يعبِّر عن هذا الواقع مهما ضاق ذرعًا به، يقول:

لَحى اللهُ عَهدَ القاسِطينَ الَّذي بِهِ تَهَدَّمَ مِن بُنيانِنا ما تَهَدَّما
إِذا شِئتَ أَن تَلقى السَعادَةَ بَينَهُم فَلا تَكُ مِصرِيًّا وَلا تَكُ مُسلِما[79]

ولكن هذا اليأس لم يستمر طويلًا، فالأمل معقود في الله أولا ثم في الأجيال اللاحقة.

قبيل الثلاثين من عمره كتب حافظ قصيدته: "دولة السيف ودولة المدفع" ليقارن بين الشرق والغرب في مجال القوة، وكانت هذه القصيدة على شكل أرجوزة، والقصيدة وإن كانت شبه مرتجلة، بيد أنَّها تعبر –ولو في جانب واحد وهو الجانب العسكري– عن تلك المقارنة التي شغلت حافظا وأمثاله من رواد النهضة الفكرية والأدبية.

بدأ حافظ أرجوزته بخطاب دولة السيف (التقليدية) القديمة، وقد يغمز إلى الدولة العثمانية التي كانت تحتضر قبيل الحرب العالمية الأولى، أو يقصد أمم الشرق عمومًا:

يـــا دَولَـــةَ القَواضِـــبِ الصِـــقالِ
وَصَـــــولَةَ الـــــذَوابِلِ الطِـــــوالِ
كَـم شِـدتِ بَـينَ الأَعصُـرِ الخَـوالي
مَمالِكًـــــا عَزيـــــزَةَ المَنـــــالِ
قامَـــت بِجَـــدِّ الأَبـــيَضِ القَصّـــالِ
وَسِـــــنِّ ذاكَ الأَســـــمَرِ العَسّـــــالِ
راحَـــت بِهـــا الأَيّـــامُ وَاللَيـــالي[80]

فهي دولة السيوف الصقلية والرماح الطويلة، كم شادت قديمًا من ممالك ودول حكمت الأرض بهذين: السيف والرمح، ثم دالت هذه الدولة وخلفتها دولة أخرى بملامح أخرى:

وَخَلَفَتهـــا دَولَـــةُ الجَـــلالِ
مَملَكَـةُ المِـدفَعِ ذاتُ الخـالِ
قامَت بِحَـولِ النـارِ وَالزِلـزالِ
فَأَرهَبَـت أَفئِـدَةَ الأَبطـالِ[81]

ثم يتمادى في وصف المدفع فيصفه بأنَّه مزعزع الجبال ومفزع الليوث وقاطع الأميال وخاطف الأرواح:

أَرهَبَهـــا مُزَعـــزِعُ الجِبـــالِ
وَمُفـزِعُ اللُيـوثِ فـي الـدِحالِ
وَقـــاطِعُ الآجـــالِ وَالآمـــالِ
وَخاطِفُ الأَرواحِ مِن أَميالِ[82]

ويصور حافظ النيران التي تتدفق من المدافع الحديثة بأنه تشبيه البركان الثائر، خاصة في توالي الحمم الصادرة عنه:

يَثـــورُ كَالبُركـــانِ فـــي النِـــزالِ
فَيُتبِـــعُ الأَهـــوالَ بِـــالأَهوالِ
ويرسـلُ النـارَ علـى التـوالي[83]

ثم يعود إلى المقارنة بينه وبين السيف مع محاولة إسقاط المقارنة على طباع الطرفين (الشرق والغرب) ولكن بطريقة عكسية فيقول:

وَلَـم يَكُـن كَـذَلِكَ الخَتّـالِ
يَحُزُّ في الهامِ وَفي الأَوصالِ
صـامِتَ قَـولٍ نـاطِقَ الفِعـالِ
رَأَيتُـهُ كَـالقَومِ فـي المِثـالِ
مالوا عَنِ القَولِ إِلى الأَعمالِ
فَـامتَلَكوا ناصِـيَةَ المَعـالي[84]

أي أن المدفع بصولته العارمة وصوته المفزع ليس كالسيف الخادع الصامت الذي يشبه (القوم) أي يشبه أمم الغرب، وحافظ كثيرًا ما يعبّر عن الغرب أو الإنجليز خاصة "بالقوم" و"بأمة التاميز" وبغير ذلك من الكنايات المترددة في شعره.

وهنا يضع حافظ مفارقة في كون أمم الغرب تشبه السيف (وهو السلاح القديم) في صمته وخداعه وقطعه، فهم في سياستهم لا يطنطنون كما يفعل أهل الشرق، بل "مالوا عن القول إلى الأعمال" ولذلك "امتلكوا ناصية المعالي" ومع ذلك كله فهم أهل المدافع والأسلحة الحديثة ذات الدوي الهائل. لا أهل السيف القديم الصامت، إنهم يشبهونه فقط في طبائعهم، حيث الصمت والخداع والقطع.

وتتوالى القصائد التي تزخر بالمقارنات بين الشرق والغرب، فلا يترك حافظ مناسبة إلا ويظهر فيها مكنون مشاعره إزاء هذه القضية.

ففي قصيدته التي حيّا بها الأسطول العثماني سنة 1910م، ينتعش أمله في نهضة الشرق على يد الخليفة، هذا على الرغم من الأزمات الداخلية الحادة التي كانت تعيشها دولة الخلافة في ذاك الوقت، مع ذلك فقد انتهز فرصة هذا التقليد الهزيل للغرب ليمدح الخليفة فيقول:

ملـــكٌ للشـــرقِ فـــي أيامِـــهِ هَمّـةُ الغرب نهوضًـا واعتزامـا[85]

ثم يتوجَّه للإنسان الشَّرقي فيطلب منه أن يشمر عن ساعديه وأن ينفض العجز وأن يسابق الغربيّ في كل شيء إلا الأطماع:

أَيُّهـــا الشَـــرقِيُّ شَـــمِّر لا تَـــنَم وَانفُـضِ العَجـزَ فَـإِنَّ الجِـدَّ قامـا
وَامـــتَطِ العَـــزمَ جَـــوادًا لِلعُـــلا وَاجعَـــلِ الحِكمَـــةَ لِلعَـــزمِ زِمامـــا
وَإِذا حاوَلـــتَ فـــي الأُفـــقِ مُنـــىً فَاركَـبِ البَـرقَ وَلا تَـرضَ الغَمامـا
لا تَضِـق ذَرعًـا بِمـا قـالَ العِـدا رُبَّ ذي لُـبٍّ عَـنِ الحَـقِّ تَعـامى
سـابِقِ الغَربِـيَّ وَاسـبِق وَاِعتَصِـم بِـــالمُروءاتِ وَبِالبَـــأسِ اِعتِصـــاما
جانِـبِ الأَطمـاعَ وَانهَـج نَهجَـهُ وَاجعَـلِ الرَحمَـةَ وَالتَقـوى لِزامـا[86]

فإذا كان الغربي قد تجبَّر في الأرض بعلمه فلا يجب أن نقتدي به في هذا الجانب، إنما نقتدي به فقط في الهمة والعلم والعمل. أما ما وراء ذلك من

أغراض تخرج عن حدود الإيمان والتقوى والرحمة بخلق الله فلا حاجة بنا إليها. فالغربيون قد حاولوا بعلمهم أن يُعجزوا ويفسدوا في الأرض:

طَلَبــوا مِــن عِلمِهِــم أَن يُعجِــزوا قــادِرَ المَــوتِ وَأَن يَثنــوا الحِمامــا
وَأَرادوا مِنــــــهُ أَن يَــــــرفَعَهُم فَوقَ هامِ الشُهبِ فـي الغَيبِ مَقامـا
قُتِــــلَ الإِنســــانُ مــــا أَكفَــــرَهُ طاوَلَ الخالِقَ فـي الكَونِ وَسامى[87]

لقد اقترب الغربي من الكفر الصراح بغروره وكبريائه، أما الشرقي فدائمًا معتصم بربه في حالة القوة أو في حالة الضعف. ولذا يتوجه حافظ إلى رب العزة كي يمد الشرق بالقوة وأن ينهض من كبوته، وتلوح لديه صورة اليابان، القوة الشرقية الواعده، فيدعو الله أن نلحق بها ويكون منا أمثال قوادها العظام (طوجو وأوياما):

قُــوَّةَ الــرَحمَنِ زيــدينا قُــوىً وَأَفيضـي فـي بَنـي الشَرقِ الوِئامـا
أَفرِغــي مِــن كُــلِّ صَــدرٍ حِقــدَهُ املَئــي التــاريخَ وَالــدُنيا كَلامــا
أَســــأَلُ اللهَ الَّــــذي أَلهَمَنــــا خِدمَــةَ الأَوطــانِ شَــيخًا وَغُلامــا
أَن أَرى فــي البَحــرِ وَالبَــرِّ لَنــا فـي الوَغى أَندادَ طوجو وَأُياما[88]

وفي قصيدة أخرى ألقاها سنة 1906م بمناسبة تأسيس الدولة العثمانية، عدّد حافظ مآثر السلاطين العثمانيين، وأشاد بفتوحاتهم العسكرية، وأشار إلى موقفٍ للسلطان عبد المجيد[89] سنة 1841م آوى فيه زعماءً من الغرب كانوا ثائرين في بلادهم على الأنظمة القمعية ومنحهم حق اللجوء السياسي، وعلى رأسهم (كوشوط) المجري، وكان زعيم ثورة لتحرير المجر، فطلبت النمسا وروسيا من الدولة العثمانية تسليمهم، فرفض السلطان عبد المجيد بحجة أن هذا التسليم لا تقره شريعة ولا خُلُق، ولاقى هذا الموقف تأييدًا من إنجلترا وفرنسا، أي أنه موقف

متحضر، فدعمتا السلطان العثماني بأسطوليهما، ولولا ذلك لنشبت حرب بين الدولة العثمانية من جهة، وروسيا والنمسا من جهة أخرى[90].

هذا الموقف أراد حافظ أن يقدمه كنموذج متحضِّر للدولة العثمانيَّة التي ساءت سيرتها في الغرب، وعُرف عنها أنها دولة عسكرية قمعية، ارتكبت جرائم تاريخيَّة في حق الشعوب التي حكمتها، تلك هي الصورة التي حرص الإنجليز وغيرهم أن يقدموها عن هذه الدولة التي كانت تمر بمرحلة الشيخوخة التاريخيَّة، ليس فقط للشعوب البعيدة عن مقر الخلافة، بل للأتراك أنفسهم في عقر دارهم، وقد نجحوا إلى حدٍّ كبير في فصل تركيا عن دول المشرق بعد تفتيت الخلافة التي لم تكن مجدية في ذلك الوقت.

والحقيقة أن صولة الحضارة الغربيَّة كانت قد بسطت هيمنتها على الدولة العليّة باعتبارها مركز القوة في المشرق، ومن خلال الجوار الأوربي استطاعوا إقناع الشعب التركي بالثورة على النظام القديم وتأسيس دستور جديد وإنشاء أحزاب معارضة للخليفة، وكانت كل هذه الأخبار تصل من خلال الصحف العالمية والمحررات العربيَّة التي تبنتها الدول الاستعماريَّة إلى الشعوب العربيَّة وغيرها، فكان الزعماء والمفكرون حينما يسمعون شيئًا من هذا في دار الخلافة يطلقون أصواتهم بالشعارات الجديدة، الحرية والدستور وحقوق الإنسان. وكم من قصائد لحافظ إبراهيم أشاد فيها بالدستور العثماني وأصحابه الذين جاهدوا من أجل إرسائه أمثال نيازي وأنور:

وَإِن لَـم يَقُـم إِلّا نِيـازي وَأَنـوَرٌ فَقَد مَلَأَ الدُنيا نِيازي وَأَنوَرُ[91]

من هنا أراد حافظ أن يعبِّر بشعره عن هذه الروح الجديدة التي تحث الشرقي على النهوض بركب الحضارة مع التمسك بقيم الشرق. يقول مفتخرا بموقف السلطان عبد المجيد:

وَما كانَ مِن عَبدِ المَجيدِ إِذِ اِحتَمى بِأَكنافِـهِ كوشـوطُ وَالخَطـبُ غَيهَـبُ
يُنـاديهِمُ أَمّـا نَزيلـي فَدونَـهُ حَيّـاتي وَأَمّـا صـارِمي فَمُشَـطَّبُ
فَإِن كانَتِ الحُسنى فَإِنّي سَماؤُها وَإِن كانَتِ الأُخرى فَشُدّوا وَجَرِّبوا
كَذَلِكَ كانوا يَستَقِرّونَ في الذُرا وَأَعداؤُهُم في الغَربِ تَشقى وَتُنكَبُ[92]

فهو يحاول أن يجمِّل صورة الشرق أمام الغرب من أجل هذا الموقف في حين أنه كان يعلم جيدا أن 1841م ليست ببعيدة عن معاهدة لندن التي تحكمت في صياغتها الدول الغربية، وكانت تُقسّم الإمبراطورية العثمانية المتهالكة على نحو يمهد لها استعمار أراضيها.

ثم يقارن بين ذلك العهد –على ضعفه– والعهد الذي يعيش فيه بعد ما يقارب سبعين سنة، فيشير إلى ما أصاب الشرق من وجود الامتيازات الأجنبيَّة فيقول:

فَكَم طَلَبوا مِنهُم أَمانًا فَأَمَّنوا وَأَمسى لَهُم في الشَرقِ مَسرىً وَمَسرَبُ
فَكانَ أَمانَ القَومِ وَالشَرقُ مَشرِقٌ فَأَضحى امتِيازَ القَومِ وَالشَرقُ مَغرِبُ[93]

ويختتم قصيدته بندائين: نداء إلى الشَّرق يحذره فيه من ألاعيب الغرب وخداعهم ويصورها بالصهباء. ونداء إلى الغرب ألا يتكبر ولا يتجبر فالأيام دول:

فَيا شَرقُ إِنَّ الغَربَ إِن لانَ أَو قَسا فَفيهِ مِنَ الصَهباءِ طَبعٌ مُذَوَّبُ
فَخَفْ بَأسَها في الرَأسِ وَالرَأسُ يَصطَلي وَخف ضَعفَها في الكَأسِ وَالكَأسُ تُطرِبُ
وَيا غَربُ إِنَّ الدَهرَ يَطفو بِأَهلِهِ وَيَطويهِ تَيّارُ القَضاءِ فَيَرسُبُ[94]

وفي قصيدته عن الامتيازات الأجنبيَّة يطرح مقارنة بين ما يجري في مصر خاصة، وما يجري في بلاد الغاصب المستعمر، يقول:

وَهَـــل فـــي مِصـــرَ مَفخَـــرَةٌ سِـــوى الأَلقـــابِ وَالرُتَـــبِ
وَذي إِرثٍ يُكاثِرُنـــــــــا بِمـــالٍ غَيـــرِ مُكتَسَـــبِ
وَفـــي الرومِـــيِّ مَوعِظَـــةٌ لِشَـــعبٍ جَـــدَّ فـــي اللَعِـــبِ
يُقَتِّلُنــــا بِــــلا قَــــوَدٍ وَلا دِيَـــةٍ وَلا رَهَـــبِ
وَيَمشـــي نَحـــوَ رايَتِـــهِ فَتَحميـــهِ مِـــنَ العَطَـــبِ[95]

فالرومي أي الأوروبي الغاصب، لنا فيه موعظة، حيث نهتم نحن بالتقاليد الزائفة، أما هو فيعتز برايته ويقتل شعبنا تحت هذه الراية التي تحميه من الهلاك.

ثم يطالب بالمنافسة الحقيقية:

أرونـــي نصـــف مختـــرع أرونـــي ربـــع محتســـب[96]

ويعود إلى قدوته الأثيرة (دولة اليابان) فيقول:

فَهُبّـــوا مِـــن مَراقِـــدِكُم فَـإِنَّ الوَقـتَ مِـن ذَهَـبِ
فَهَـــذي أُمَّـــةُ اليابـــا نِ جـازَت دارَةَ الشُـهُبِ
فَهامَـــت بِـــالعُلا شَـــغَفًا وَهِمنـا بِإِبنَـةِ العِنَـبِ[97]

فقد هامت هذه الدولة الغنية (اليابان) بالعلا؛ حيث العمل الدءوب والهمة العالية، أما نحن فقد سكرنا بخمر الغفلة.

وتظهر المقارنة واضحة في قصيدته التي تخيل فيها استقلال مصر، ونشرها تحت عنوان "بين اليقظة والمنام" فكأنَّه يطالب المصري بعد الاستقلال المأمول، بأن ينظر إلى الغربيّ فيكتسب منه صفاته الحضارية ليصنع مستقبلًا زاهرًا لبلاده، يقول:

قُم يا اِبنَ مِصرَ فَأَنتَ حُرٌّ وَاِستَعِد ... مَجدَ الجُدودِ وَلا تَعُد لِمَراحِ

....

وَاُنظُر إِلى الغَربِيِّ كَيفَ سَمَت بِهِ ... بَينَ الشُعوبِ طَبيعَةَ الكَدّاحِ

وَاللَهِ ما بَلَغَت بَنو الغَربِ المُنى ... إِلّا بِنِيّاتٍ هُناكَ صِحاحِ

رَكِبوا البِحارَ وَقَد تَجَمَّدَ ماؤُها ... وَالجَوَّ بَينَ تَناوُحِ الأَرواحِ

وَالبَرَّ مَصهورَ الحَصى مُتَأَجِّجًا ... يَرمي بِنَزّاعِ الشَوى لَوّاحِ

يَلقى فَتِيُّهُمُ الزَمانَ بِهِمَّةٍ ... عَجَبٍ وَوَجهٍ في الخُطوبِ وَقاحِ

وَيَشُقُّ أَجوازَ القِفارِ مُغامِرًا ... وَعرُ الطَريقِ لَدَيهِ كَالصَحصاحِ

وَاِبنُ الكِنانَةِ في الكِنانَةِ راكِدٌ ... يَرنو بِعَينٍ غَيرِ ذاتِ طِماحِ

لا يَستَغِلُّ كَما عَلِمتَ ذَكاءَهُ ... وَذَكاؤُهُ كَالخاطِفِ اللَمّاحِ[98]

وهنا يظهر إصرار حافظ على ربط الحضارة الغربية بالعمل والكدح والنية الصادقة في النهضة، ويعدد أوجه التقدم والحضارة من ركوب البحر والبر والجو بالهمة العالية، في حين يرقد المصري (ابن الكنانة) ولا يستغلّ ذكاءه الفطري التاريخي الخاطف اللماح.

ويعتز حافظ بالذكاء المصري المعروف، فيطلب من المصري أن يجعل من ذكائه شبكة يصطاد بها كل جديد مربح:

وَاربَح لِمِصرَ بِرَأسِ مالِكَ عِزَّةً ... إِنَّ الذَكاءَ حُبالَةُ الأَرباحِ[99]

وفي قصيدته عن إيطاليا التي أشرنا إليها سابقًا عقد حافظ مقارنة جيدة تعبر عن مدى الفجوة بين الشرق والغرب، حيث إن الغرب يهتمون جيدا بالتخطيط للمستقبل وما يمكن أن يتعرضوا له من كوارث طبيعية في حين أننا ننظر – فقط– تحت أقدامنا، بل إنهم بهمتهم يزرعون رؤس الجبال ويستصلحون الأراضي الجرداء في حين أننا نهمل ما تحت أيدينا من أراض خصبة فتبور منا:

قَــد أَعَــدّوا لِحادِثــاتِ اللَيــالي عُــــدَّةً لا يَحوزُهــــا التَقــــديرُ
نَضَّروا الصَخرَ في رُؤوسِ الرَواسي وَلَدَينا في مَوطِنِ الخِصبِ بورُ[100]

لقد وقفنا عند القديم ولم نتطور، أما هم فانطلقوا إلى الكمال:

قَد وَقَفنا عِندَ القَديمِ وَساروا حَيثُ تَسري إِلى الكَمالِ البُدورُ[101]

ثم يضرب مثالًا عمليًّا للمقارنة:

وَالجَواري في النيلِ مِن عَهدِ نوحٍ لَــم يُقَــدَّر لِصُــنعِها تَغييــرُ[102]

فهذه المراكب الموجودة في النيل يرى الشاعر أنها لم تتطور ولم تتغير من قديم الزمان، ذلك لأن الإنسان نفسه لم يتغير، بل عاش مقهورا، فأعدمت المواهب وكُبت الإبداع.

وينتهز الشاعر الفرصة لينتقل من مقارنة المناخ والأجواء الطبيعية إلى مقارنة الطبائع:

شَمسُــهُم غــادَةٌ عَلَيهــا حِجــابٌ فَهــيَ شَــرقِيَّةٌ حَوَتهــا الخُــدورُ
شَمسُــنا غــادَةٌ أَبَــت أَن تَــوارى فَهــيَ غَربِيَّــةٌ جَلاهــا السُــفورُ
جَــوُّهُم فــي تَقَلُّــبٍ وَاخــتِلافٍ غَيــرَ أَنَّ الثَبــاتَ فــيهِم وَفيــرُ
جَوُّنــا أَثبَــتُ الجِــواءِ وَلَكِــن لَيسَ فينا عَلى الثَباتِ صَبورُ[103]

فالشاعر بحسّه اللطيف ومن خلال المفارقة يصور شمسهم في الغرب التي يحجبها الغمام معظم العام بأنها فتاة شرقية محجبة، والعكس عندنا، فشمسنا ساطعة سافرة معظم العام فهي كالفتاة الغربية التي أبت أن تتحجب.

ثم ينتقل بذكاء من الأجواء الطبيعية إلى الطبائع الإنسانية، فيذكر أنهم على الرغم من تقلب المناخ والطقس في بلادهم فإنهم ثابتون على مبادئهم وأعمالهم واجتهادهم، أما نحن فعلى الرغم من أن الجوّ عندنا أثبت الأجواء فإننا لا نثبت

أمام التحديات؛ حيث تأخرنا عن ركب الحضارة العالمية. وتلك مفارقات شعريَّة تبيِّن مدى الفجوة بين الشرق والغرب.

ثم يذكر الشاعر وجهًا من أوجه المقارنة في مجال الفنّ، حيث يرى أن فنون الغرب تهتم باللباب والجوهر، أما فنون الشرق فينصب اهتمامها على القشور الخارجية والمظاهر الشكلية:

ولـــديهم مـــن الفنـــون لبـــابٌ ولـدينا مـن الفنـون قشـور[104]

ولعلَّه بذلك يقصد الفن الهادف في أوروبا الذي يحمل رسالة اجتماعية أو سياسية تزيد المتلقي إحساسًا بما حوله ووعيًا بحاضره ومستقبله، وهو ما كان مفتقدًا في العصر العثماني الذي تقلصّ فيه دور الفن في المجتمع الشرقي، ولم يخرج عن التقليد بل لجأ إلى الصنعة والتكلف، ليس في الأدب فقط، بل في الفنون عامة.

ومن المعروف أن هناك أسبابًا ذكرها مؤرخو الأدب كانت وراء ضعف الأدب والفن في العصر العثماني الذي شهد شاعرنا نهايته.

أما في أوروبا فقد طفر الفن فيها متوشحًا بالنزعة الإنسانيَّة؛ حيث أثبت الإنسان بقدراته العلمية أنه أهل لأن يكون محورا للفن، ومن ثم اتجهت أنظار الفنانين إليه وإلى عالمه الرحب الغامض "يحاولون استكناه أسراره وتفهّم غوامضه"[105].

ويذكر الشاعر في القصيدة نفسها ما تتميز به إيطاليا من مبانٍ وعمائر ورياض مونقة في الوقت الذي يهمل فيه ولاة أمورنا هذه المظاهر العمرانية، فيشير إلى بيوت الوقف التي صارت خرابا بسبب قانون الأوقاف الروتيني الذي لا يتيح مجالًا للتطوير والإبداع، فيذكر أن شرع الغرب قد أنكر نظام الوقف المعمول به في الشرق:

أَنكَرَ الوَقفَ شَرعُهُم فَلِهَذا كُلُّ رَبعٍ بِأَرضِهِم مَعمورُ
لَيسَ فيها مُستَنقَعٌ أَو جِدارٌ قَد تَداعى أَو مَسكَنٌ مَهجورُ
كُلُّ شِبرٍ فيها عَلَيهِ بِناءٌ مُشمَخِرٌّ أَو رَوضَةٌ أَو غَديرُ[106]

إذن فالمشكلة في طباعنا نحن، فلقد اعتدنا التواكل والرياء، وبكاء الماضي بلا جدوى، ولذلك يتوجه حافظ في قصيدته إلى "رجال الدنيا الجديدة" يخاطب مكتشف الكهرباء علّه يجد عنده دواءً للشرق:

كاشِفَ الكَهرَباءِ لَيتَكَ تُعنى بِاختِراعٍ يَروضُ مِنّا الطِباعا
آلَةٍ تَسحَقُ التَواكُلَ في الشَر قِ وَتُلقي عَنِ الرِياءِ القِناعا
قَد مَلِلنا وُقوفَنا فيهِ نَبكي حَسَبًا زائِلًا وَمَجدًا مُضاعا
وَسَئِمنا مَقالَهُم كانَ زَيدٌ عَبقَرِيًّا وَكانَ عَمرٌ شُجاعا[107]

لقد سئمنا هذه الشعارات، فمتى نفرغ إلى العمل؟ فما نيل المطالب بالتمني:

لَيتَ شِعري مَتى تُنازِعُ مِصرٌ غَيرَها المَجدَ في الحَياةِ نِزاعا
وَتَراها تُفاخِرُ الناسَ بِالأَحـ ياءِ فَخرًا في الخافِقينَ مُذاعا[108]

ولا تغيب المقارنة عن حافظ في أشهر قصائده، فقد كانت فكرة مهيمنة على حياة الشاعر. ففي رائعته الشهيرة "مصر تتحدث عن نفسها" يبرز وجه مصر الفرعوني في المقارنة ليدلل من خلاله على أن الأمل معقود في الشرق عامة وفي مصر خاصة، فمصر أم الحضارة وأم التشريع، ومنها أخذ اليونان والرومان أجداد الغربيين:

أَيُّ شَـيءٍ فـي الغَربِ قَد بَهَرَ النـا سَ جَمـالًا وَلَـم يَكُـن مِنـهُ عِنـدي
فَتُرابـــي تِبـــرٌ وَنَهـــري فُـــراتٌ وَسَـــمائي مَصـــقولَةٌ كَالفِرِنـــدِ
أَينَمـا سِـرتَ جَـدوَلٌ عِنـدَ كَـرمٍ عِنـــدَ زَهـــرٍ مُـــدَنَّرٍ عِنـــدَ رَنـــدِ
وَرِجـالي لَـو أَنصَـفوهُم لَسـادوا مِـن كُهـولٍ مِـلءِ العُيـونِ وَمُـردِ
لَـو أَصـابوا لَهُـم مَجـالًا لَأَبـدَوا مُعجِزاتِ الـذَكاءِ فـي كُـلِّ قَصـدِ[109]

إنها مصر التي تملك العبقريات الكامنة في شعبها العريق، فما هي إلى أن تتاح لهم فرص الإبداع حتى يبهروا العالم كما بهروه قديما، ويلهموه كما ألهموه قديما، ويعلموه كما علموه قديما:

أَنـا أُمُّ التَشـريعِ قَـد أَخَـذَ الـرو مـانُ عَنّـي الأُصـولَ فـي كُـلِّ حَـدِّ
وَرَصَـدتُ النُجـومَ مُنـذُ أَضـاءَت فـي سَماءِ الدُجى فَأَحكَمتُ رَصدي
وَشَـدا "بَنتَئـورَ" فَـوقَ رُبـوعي قَبـلَ عَهـدِ اليونـانِ أَو عَهـدِ نَجـدِ
وَقَـديمًا بَنـى الأَسـاطيلَ قَـومي فَفَـرَقنَ البِحـارَ يَحمِلـنَ بَنـدي
قَبلَ أُسطولِ "تِلسُنٍ" كانَ أُسطو لـي سَـرِيًّا وَطـالِعي غَيـرَ نَكـدِ[110]

فمصر التي علمت العالم القوانين والأنظمة والمراصد الفلكية في السماء، والشعر الرائع قبل اليونان الحكماء وقبل العرب البلغاء، ومصر الفرعونية هي التي علمت العالم بناء الأساطيل البحرية التي جابت العالم آنذاك قبل الأسطول الإنجليزي المرعب أسطول "تلسن" الذي دمر الأسطول الفرنسي في أبي قير، فمصر هي التي ألهمت العالم هذا الفكر المتحضر.

فسلوا البحر عن بلاء سفيني وسلوا البر عن مواقع جردي[111]

هذه المقارنة بين ماضي الشرق وماضي الغرب كانت المتنفس لدى الشاعر، والمنطلق الذي من خلاله يقول:

أَيُّ شَـعبٍ أَحَـقُّ مِنّـي بِعَـيشٍ وارِفِ الظِلِّ أَخضَرِ اللَونِ رَغدِ[112]

ولا تغيب المقارنةُ أيضًا عن قصيدته المنافحة عن اللُّغة الفصحى التي نشرها في وقت مبكر سنة 1903م، فقد ذكر الغرب فيها مرارًا ليفاخر هذه المرّة بأجداده العرب أهل البلاغة واللسن. يقول حافظ على لسان اللُّغة العربيَّة:

أَرى لِرِجـــالِ الغَـــربِ عِـــزًّا وَمَنعَـــةً وَكَـــم عَـــزَّ أَقـــوامٌ بِعِـــزِّ لُغـــاتِ
أَتَـــوا أَهلَهُـــم بِـــالمُعجِزاتِ تَفَنُّنًـــا فَيـــا لَيـــتَكُم تَـــأتونَ بِالكَلِمـــاتِ[113]

فقد أصبحت المقارنة هنا حافزًا على التمسُّك باللُّغة الفصحى لأن الغرب – أصحاب المعجزات العلمية– أعزوا لغاتهم ونشروها وحرصوا على تعليمها للشعوب المستعمرة (الاستعمار الثقافي) ولذلك فهو متيقظ للمؤامرة حتى وإن خرجت من بعض الشرقيين الموالين للغرب:

أَيُطرِبُكُم مِن جانِبِ الغَربِ ناعِبٌ يُنادي بِوَأدي في رَبيعِ حَياتي[114]

ثم يفاخر صراحة بأصله العربيّ في مواجهة تلك الهجمة الغربيَّة:

سَقى اللهُ فـي بَطنِ الجَزيـرَةِ أَعظُمًـا يَعِـزُّ عَلَيهـا أَن تَلـينَ قَنـاتي
حَفِظـنَ وِدادي فـي البِلـى وَحَفِظتُـهُ لَهُـنَّ بِقَلـبٍ دائِـمِ الحَسَـراتِ
وَفاخَرتُ أَهلَ الغَربِ وَالشَرقُ مُطرِقٌ حَياءً بِتِلكَ الأَعظُمِ النَخِراتِ[115]

نعم إنه يفاخر بأجداده العرب كما فاخر بأجداده المصريين، كما فاخر – على استحياء– بانتمائه إلى الخلافة العثمانية، وأخيرًا كما فاخر بمشرقه الممتد إلى اليابان– دولة الأمل آنذاك– التي كان الغرب يتخوف من تغولها قبل الحرب العالمية الثانية وقبل أن يغير عليها بالسلاح النووي بعد ذلك.

تلك هي مجموعة الانتماءات التي اعتزَّ بها الشَّاعر ليضعها في مواجهة الغرب عند المقارنة: الانتماء القومي بشقيه المصري والعربي، والانتماء الديني لدولة الخلافة الإسلاميَّة آنذاك، والانتماء الإقليمي للشرق عامة بشقيه الأوسط والأقصى.

ومع أنَّ الشَّاعر قد حذَّر قبل ذلك من المبالغة في التعلُّق بالشعارات القديمة والفخر بالآباء والأجداد دون همة وعمل، فإنه لجأ إلى هذا الجانب متحفظا بوجوب التشبه بهم ومحاولة النهوض من عثرات الواقع.

لقد أضاف حافظ إبراهيم جوانب أخرى من "ملامح الصورة الجديدة للشعر العربي، واستجابته لحاجة المتلقي في العصر الحديث، وتواصله معه، بعد أن أصبح هذا المتلقي، بفضل تطور وسائل الإعلام، وأبرزها الصحافة في ذلك الوقت، طرفًا رئيسيًّا في الإبداع الشعري"[116].

الخاتمة

لقد بدا واضحًا بعد هذا العرض الشَّامل لصورة الغرب في شعر حافظ إبراهيم أنَّ الشَّاعرَ نشأ في عصرٍ له طبيعته الخاصة، فُرضت فيه الهيمنة الاستعمارية بشقيها العسكريّ والثقافيّ، وكان لذلك تأثيرٌ كبيرٌ على دول المشرق وسياساتها الدَّاخليَّة والخارجيَّة، فلم يجد قادةُ المشرق خيارًا آخر سوى التواصل مع القوى الغربيَّة المسيطرة في شتى المجالات، فظهر الجيل الجديد –جيل حافظ– يرقب المشهد عن كثب، منبهرًا بمستجدات الحضارة الغربيَّة آملا في النُّهوض بركبها، مفتخرًا بما لديه من بقايا حضارة أصليَّة ضاربة بجذورها في التَّاريخ سواء أكانت الحضارة المصريَّة القديمة أم الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة في العصور الوسطى، راثيًا لواقعه الأليم الذي آلت إليه دولة الخلافة المحتضرة، وبالتالي، آل إليه وطنُه المحتل. فعاش بين هذا وذاك، وإذا به يصطدم بإشكاليات عسيرة تقف حائلًا أمام تحقيق آماله وطموحاته، على رأسها تعنُّت العدو المتحضِّر وتوحشه في معاملة بني وطنه، وانفصام شخصيته بين شعارات التحضُّر والعنصريَّة البغيضة التي تبرز الأطماع الإنسانيَّة. ثم يصطدم بعد ذلك بضعف قادته وانقيادهم –غالبًا– لمراد هذا الغاصب المحتل، وأخيرًا بسياسة الاستعمار الثقافيّ الذي أراد أن يهمّش التَّعليم ويؤخِّر الشَّرقَ ليظل تابعًا أمينًا له.

ولقد أسفر هذا البحث عن مجموعة من النَّتائج أهمها:

- أن الحضارة الغربيَّة كانت النموذجَ الأعلى لجلّ شعراء تلك المرحلة –ومن بينهم حافظ– ولعلّ هذه الفكرة لا تزال تلقي بظلالها على قادة الفكر والثقافة حاليًا.
- أن هذا الانبهار المبدئي ما لبث أن تقلَّص مع اندلاع الحرب العالمية الأولى التي أبرزت الوجه الآخر للحضارة المزعومة.

- أنَّ الرَّوح الوطنيَّة لدى الشاعر كانت عاملًا أساسيًّا في تشكيل تلك الصورة الخاصة بالغرب (الصورة الاستعمارية).
- أنه على الرغم من سموم الاستعمار الثقافي فإن حافظًا كان معتزًّا بانتماءاته الشرقيَّة، وظهر ذلك جليًا في شعره.
- أنه فاخر الغرب بالحضارة المصريَّة القديمة وبالحضارة العربيَّة الإسلاميَّة وبدولة الخلافة في عصور قوتها، وأيضًا محاولاتها اليائسة في اللِّحاق بالغرب وكذلك بدولة اليابان وهي القوة الشَّرقية الواعدة.
- أن (صورة الغرب) كانت ذات تأثير كبير في شعره كله، فلا نكاد نرى قصيدة له تخلو من ذكر الغرب والشرق من قريب أو بعيد.

وفي نهاية هذا المطاف يوصي الباحثُ بأهمية الدِّراسات الخاصة بهذا الجانب لدى شعراء وكتَّاب المرحلة، لما لذلك من نتائج إيجابيَّة تسهم في دراسة وتحليل الواقع الذي نعيش فيه، فتلك المرحلة هي التي شكلت ما نحن فيه الآن. لقد جثم الاستعمار على صدر هذه الأمة أكثر من ثمانين سنة، كانت كفيلة بغرس أفكار ومحو أفكار، ولا شيء أقسى من ذلك التَّراجع الملحوظ عن ركب الحضارة الإنسانية. فتوجيه البحث العلمي إلى هذا الجانب قد يسهم في التعرف على الأسباب ثم الانطلاق إلى الأمل المنشود.

وقد يكون مناسبًا أن نوصي أيضًا ببحوث مقارنة في المرحلة ذاتها تبرز صورة الشرق لدى أدباء الغرب.

الهوامش

[1]– الدكتور طه حسين، حافظ وشوقي – من مجموع ذكرى الشاعرين – المكتبة العربية في دمشق 1351هـ، ص 703.

[2]– الدكتور طه حسين، حافظ وشوقي – من مجموع ذكرى الشاعرين – المكتبة العربية في دمشق 1351هـ، ص 703.

[3]– الآية 29 من سورة الفتح {يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار}.

[4]– ديوان حافظ إبراهيم – ضبط وتصحيح أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري – الهيئة المصريَّة العامة للكتاب – سنة 1980م ط2 جـ1 ص 259

[5]– الديوان جـ 1 ص 260

[6]– الديوان جـ 1 ص 260

[7]– الديوان جـ 1 ص 136

[8]– الديوان جـ 1 ص 136

[9]– الديوان جـ 1 ص 137

[10]– الديوان جـ 1 ص 137

[11]– الديوان جـ 1 ص 312، 313

[12]– انظر هامش الديوان جـ1 ص 313

[13]– الديوان جـ 1 ص 313

[14]– انظر، مصطفى صادق الرافعي – حافظ الشاعر الاجتماعي– مجموعة دراسات (ذكرى الشاعرين) – المكتبة العربية في دمشق 1351هـ – ص 111

[15]– الديوان جـ 1 ص 314

[16]– الديوان جـ 1 ص 200

[17]– الديوان جـ 2 ص 82، 83

[18]– الديوان جـ 2 ص 82

[19]– د. شوقي ضيف – فصول في الشعر ونقده – دار المعارف – القاهرة – ط3 سنة 1988 ص 259

[20]– الديوان جـ2 ص 137

[21]– د/ محمد حسين هيكل – حياة حافظ في شعره – ذكرى الشاعرين – المكتبة العربية بدمشق ص 44

[22]– الديوان جـ1 ص 238

[23]– كان ذلك في مأدبة أقامها بعض أدباء الغرب تكريما لحافظ وشوقي ومطران سنة 1928م ، انظر الديوان ص 131

[24]– الديوان جـ1 ص 63 ، وانظر المقدمة الثرية التي قدمت بها القصيدة.

[25]– الديوان جـ1 ص 64

[26]– الديوان جـ1 ص 64

[27]– انظر الديوان ص 38

[28]– الديوان ص 64

[29]– الديوان ص 64

[30]– الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني – حافظ الرجل – ذكرى الشاعرين – ص 62

[31]– الديوان جـ1 ص 262

[32]– الأستاذ/ أحمد أمين، الأستاذ/ أحمد الزين، والأستاذ/ إبراهيم الإبياري، وقد اعتنى ثلاثتهم بالتعليق على الديوان وتقديمه بجهد مشكور ينير السبيل للباحثين في شعر حافظ إبراهيم.

[33]– الديوان ص 229

[34]– الديوان ص 229

[35]– السابق ص 230–231

[36]– انظر ما كتبه عنه أحمد أمين في مقدمة الديوان ص 60

[37]– الديوان ص 231،232

[38]– الديوان ص 232

[39]– محمد كاني – مقدمة الطبقة الثانية – ديوان حافظ – ص 28

[40]– السابق ص 28

[41]– انظر، ابن رشيق القيرواني – العمدة– بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد – دار الجيل – بيروت ص 95 ، جاء فيه "وحكى الأصمعي عن ابن أبي طرفة: كفاك من الشعراء أربعة: زهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، وعنترة إذا كلِب" "وقيل لكصير

– أو لنصيب، من أشعر العرب؟ فقال: امرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا شرب".

[42]– انظر، مقدمة الديوان ص 25

[43]– محمد إسماعيل كاني / مقدمة الطبعة الثانية/ ديوان حافظ. ص 21

[44]– السابق ص 25

[45]– انظر شكواه إلى الشيخ محمد عبده بالديوان جـ2 ص 125

[46]– الديوان ص 195

[47]– د/ يوسف نوفل – حافظ إبراهيم – الدار المصرية اللبنانية ط1 سنة 1997م – ص 23

[48]– د.زكي مبارك– حافظ المحدث – ذكرى الشاعرين ص 73

[49]– الديوان جـ2 ص 119

[50]– الديوان جـ2 ص 118

[51]– الديوان جـ2 ص 20

[52]– الديوان جـ2 ص 20

[53]– الديوان جـ2 ص 21

[54]– الديوان جـ2 ص 25

[55]– الديوان جـ2 ص 26

[56]– الديوان جـ2 ص 66

[57]– الديوان جـ2 ص 66

[58]– الديوان جـ2 ص 66

[59]– الديوان جـ2 ص 67

[60]– الديوان جـ2 ص 72 ، 73

[61]– الديوان جـ2 ص 74 ، 75

[62]– انظر المقدمة النثرية للقصيدة جـ2 ص 76

[63]– الديوان جـ2 ص 76

[64]– الديوان جـ2 ص 78 ، 79

[65]– الديوان جـ2 ص 86

[66]– الديوان جـ2 ص 86

[67]– الديوان جـ2 ص 86

[68]– الديوان جـ2 ص 83

[69]– انظر هامش الديوان جـ2 ص 86

[70]– الديوان جـ2 ص 84

[71]– الديوان جـ2 ص 84

[72]– الديوان جـ2 ص 87

[73]– الديوان جـ2 ص 87

[74]– الديوان جـ2 ص 87

[75]– الديوان جـ2 ص 88

[76]– انظر مقدمة القصيدة – الديوان جـ2 ص 87

[77]– انظر د/ أحمد هيكل – تطور الأدب الحديث في مصر – دار المعارف – القاهرة ط 6 سنة 1994م ص 125، وانظر أيضا تعليق الأستاذ أحمد أمين في مقدمة الديوان ص 68 أو ص 85

[78]– د/ محمد زكي العشماوي – قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث – دار الشروق سنة 1994م – ص 14

[79]– الديوان جـ 2 ص 114

[80]– الديوان جـ 2 ص 202

[81]– الديوان جـ 2 ص 202

[82]– الديوان جـ 2 ص 210

[83]– الديوان جـ 2 ص 210

[84]– الديوان جـ 2 ص 210

[85]– الديوان جـ 2 ص 62

[86]– الديوان جـ 2 ص 65

[87]– الديوان جـ 2 ص 65

[88]– الديوان جـ 2 ص 65

[89]– السلطان عبد المجيد كان قد استعان بإنجلترا وفرنسا في حربه ضد محمد علي، وكان يحرص على تحسين علاقته بهاتين الدولتين لتعاضداه داخليًا وخارجيًا، في حين أنهما كانتا تخططان لاستعمار وتقسيم دول الخلافة الإسلاميَّة.

انظر ترجمته، عبد الرزاق البيطار – حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر – دار صادر – بيروت – ط2 سنة 1993 – جـ2 ص 1030.

[90]– انظر هامش الديوان جـ2 ص 18

[91]– الديوان جـ 2 ص 38

[92]– الديوان جـ 2 ص 18، 19

[93]– الديوان جـ 2 ص 19

[94]– الديوان جـ 2 ص 19

[95]– الديوان جـ 2 ص 110

[96]– الديوان جـ 2 ص 110

[97]– الديوان جـ 2 ص 111

[98]– الديوان جـ 2 ص 103، 104

[99]– الديوان جـ 2 ص 104

[100]– الديوان جـ 1 ص 231

[101]– الديوان جـ 1 ص 231

[102]– الديوان جـ 1 ص 231

[103]– الديوان جـ 1 ص 230

[104]– الديوان جـ 1 ص 230

[105]– عز الدين إسماعيل – الفن والإنسان – مكتبة غريب – بدون تاريخ – ص 82

[106]– الديوان جـ 1 ص 230

[107]– الديوان جـ 1 ص 260

[108]– الديوان جـ 1 ص 260

[109]– الديوان جـ 2 ص 90

[110]– الديوان جـ 2 ص 91، 92

[111]– الديوان جـ 2 ص 92

[112]– الديوان جـ 2 ص 92

[113]– الديوان جـ 1 ص 254

[114]– الديوان جـ 1 ص 254

[115]– الديوان جـ 1 ص 254

[116]– أحمد درويش – عشرة مداخل لقراءة الشعر – الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة 2010 ص 24

المراجـع

- إبـراهيم عبـد القـادر المـازني – حـافظ الرجـل – ذكـرى الشـاعرين– المكتبـة العربيَّة في دمشق 1351هـ.
- أحمد أمين – مقدمة الطبعة الأولى – ديوان حافظ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – سنة 1980م ط2.
- د. أحمد درويش – عشرة مداخل لقراءة الشعر – الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة –2010م.
- د. أحمد هيكل – تطور الأدب الحديث في مصر – دار المعارف – القاهرة ط 6 سنة 1994م.
- ديـوان حـافظ إبـراهيم – ضـبط وتصـحيح أحمـد أمـين و أحمـد الـزين وإبـراهيم الإبياري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – سنة 1980م ط2.
- ابن رشيق القيرواني – العمدة– بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد – دار الجيل – بيروت.
- د. زكـي مبـارك– حـافظ المحـدث – ذكـرى الشـاعرين– المكتبـة العربيَّـة فـي دمشق 1351هـ
- د. شوقي ضيف – فصول في الشعر ونقده – دار المعارف – القاهرة – ط3 سنة 1988
- د. طـه حسـين، حـافظ وشـوقي – مـن مجمـوع ذكـرى الشـاعرين – المكتبـة العربيَّة في دمشق 1351هـ
- عبد الرزاق البيطار – حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر – دار صادر – بيروت – ط2 سنة 1993

- د.عبد القادر فيدوح – الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي – مطبعة اتحاد الكتاب العربي – دمشق – سنة 1992
- د. عز الدين إسماعيل – الفن والإنسان – مكتبة غريب – بدون تاريخ.
- د. محمد حسين هيكل – حياة حافظ في شعره– ذكرى الشاعرين – المكتبة العربيَّة بدمشق
- د. محمد زكي العشماوي – قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث – دار الشروق سنة 1994م
- محمد كاني – مقدمة الطبقة الثانية – ديوان حافظ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – سنة 1980م ط2
- مصطفى صادق الرافعي – حافظ الشاعر الاجتماعي– مجموعة دراسات (ذكرى الشاعرين) – المكتبة العربيَّة في دمشق 1351هـ
- يوسف نوفل – حافظ إبراهيم – الدار المصرية اللبنانية ط1 سنة 1997م